

التعريف بالاسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
بالقاهرة

الاسلام

انطلاق... راجمودة

تأليف
مصطفى الرفعي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

كلما امتد عمر الانسان الحضارى ازدادت تبعاته ، واتسعت أمامه مبادئ العمل والبناء ، وتشعبت حوله طرق التطور والارتقاء ، فما كان يحمله على عاتقه - وهو فى الالف الاول من سنى حضارته - ليس شيئاً البتة اذا قيس بما يتراكم على عاتقه فى النصف الاول من الالف الثانى ؛ من متطلبات الحياة ، ومرافق النماء ، ووسائل العيش ، ومخاطر الوجود .

فخمسمائة عام كفيلاً بأن تقلب مفاهيم العقل ، وأساليب المنطق . وأسس العلم . فما هو ثابت فى أولها يصبح لاغياً فى آخرها ؛ وما هو بديهي فى بدايتها ينقلب خرافياً فى نهايتها ، ولا يعوزنا التدليل على ذلك فهو بين واضح لكل ذى عينين .

ولست أدرى ، هل تكون نتائج الثورة الحضارية الجديدة ، التى تلف العالم من أقصاه الى أقصاه ، فى صالح الانسانية ومن أجل رخائها ، أم تكون هى الخطوات التى تنهى بها البشرية دورها ، والسطور الاخيرة التى تختم بها مسرحيتها . فالدلائل كلها تشير الى أن كل أربع وعشرين ساعة يضيفها الزمن الى عمر المدنية تزيد من انطلاقها فى المغامرة ، وشراستها لتحقيق الفتوح ، وتضاعف فى تعشقها لفض المغاليق وتشوقها لحل المبهمات .

ولكن .. هل انهدت أزمة « الانسانية » ؟

وعمل وجد الانسان ضالته المنشودة .. « السعادة » ؟
هل تأصر بنو آدم لتوفير الرخاء والهناء لبنى آدم ، أم انهم تأمروا على
اقتسام الغنائم ، واستهام الانصبه فى الجهات الاربع من هذه الدنيا ؟

لن ارتجل جواباً لهذا التساؤل ؟

ولكننى أذكر المتفائلين بالتاريخ نفسه .. تاريخ الحروب والايام
الحوالة ، والدماء المراقبة والمدن المدمرة ، والشعوب المشردة ، والبلاد
المقسمة .

أذكرهم - ولعلمهم لا ينسون - بأن فترة السلام كانت دائماً ، فترة
قصيرة من عمر الانسانية تتخذها مهلة للاستعداد لحرب جديدة ؟ وان هذه
الفترة لو امتدت طويلاً وعرضاً ، لما كان امتدادها - ابدأً - كافياً لتعمير
ما هدمته الحروب ، ولتشيد ما قوضته الاسلحة ؟ . وأبرز دليل على ذلك
ان الانسان المتحضر ، عانى فى أقل من نصف قرن من الزمن ، حربين عالميتين ،
قدم خلالهما مئات الملايين من الاضاحى الغالية ، وحول فيهما عامر الارض
غامراً ، ودمر امهات المدن .

وفى هاتين الحربين بددت الانسانية المتسدينة ثروتها كلها - وتقدر
بالبلايين - ثناً للنار والبارود ، ومن أجل آلات المسوت والافناء ، وفيهما
أيضاً جعلت الانسانية عمالها ، وشبانها ، وشاباتنا ، واشلاء قتلاها ، جعلت
كل ذلك حشواً للمدافع ، وطعاماً للهب .

وماذا كانت نتيجة الاحتراب الطويل ؟ - وقد عرضت بايجاز صورة
أخيرة منه - وهل وجد الانسان نفسه فى منجى من العاصفة ؟

هذا هو أمل الانسان .. الأمل الذى يتضاءل وتتهارب أخيلته الحلوة ،
أمام نذر الحرب التى تحوم فى الاجواء العالمية ، وتهدد بالفناء كل ذى عرق
نابض .

لقد قدح المفكرون زناد أدمغتهم ، وابتكروا معارج عدة للازمة الخائفة ، ابتكروها في أثواب نظرية برافة ، يخيل للناظر اليها من بهيد ، انها هي آخر المطاف فيما يتعلق بالتنازع الفكرى ، وانها هي الجنة المرتقبة التى يحلم بها البائسون على الارض ، وانها هي خشبة الخلاص التى ستتقذ الانسانية المشرفة على العرق .

ابتكروا : الديموقراطية ، والملكية المقيدة ، والديكتاتورية ، والشيوعية والرأسمالية ، والوجودية ، والبيروقراطية ، والبورجوازية ، الى آخر تلك المذاهب السياسية الحديثة التى يضطرم حولها النقاش ، وتضطرب هى فى الحياة ، وتحاول كل منها أن تضم حول نفسها أكبر عدد ممكن من الانصار . وأخيراً .. ظهرت الى الوجود نظرية أخرى هى : القومية ، تقاطرت الشعوب على منهلها ، واستقت من مبادئها ، وآمنت بفكرتها ، وتطرف فريق من الناس فى فهمها وتطبيقها ، واعتدل فريق آخر وسرت القومية سريان النار فى البلاد العربية ، وأصبحت عماد النهضة ، ومعقد الامل ، ومحور العمل الايجابى والتفكير السياسى .

فاين يقف الاسلام فى زحمة هذه المبادئ ، ووضوئها الكبرى ؟

بل اين تقف هذه المبادئ وتلك النظريات من الاسلام ؟

.. ان قارئ هذا الكتاب يجد الاجابة على هذه الاسئلة . ويجد ان هذه الاجابة لا تخرج عن السرد المنطقى لتفاعل هذه النظريات ، والبيان الصريح لامتدادها حيناً ، وانكماشها حيناً آخر ، ووضوحها تارة ، وغموضها تارة أخرى ، ولا تتخطى الايضاح المنهجى بقولنا ان هذه النظريات ليست الا محاولات جديدة بالاعتبار والتقدير ، قامت فى اطراف الارض ، لاسعاد بنى الانسان ، ولكنها للأسف لم تحقق شيئاً من ذلك ! .

ان هذه المحاولات أشبه ما تكون بأدلة متناسكة النسيج ، قوية التركيب فصيحة المنطق ، غير انها تساق فى معرض الدفاع عن منهم محكوم عليه ؟

اننا نرى أن الانسانية تعاني امراضاً خطيرة ، قد يكون فيها فناؤها ،
ولسنا نشك بأن المحاولات النظرية التي برزت خلال النهضة الانسانية
الاخيرة ، لتفادى الكارثة ، أثرت تأثيراً موضعياً ، أشبه ما يكون « بالمخدر
الطبي » الذى يؤجل الالام ولا يقضى عليها .

ومن خلال ابحاث هذا الكتاب يلاحظ القارئ اننا قمنا بجولة فى سوق
النظريات - ونحن نحمل الاسلام فى صميمنا - ورحنا نلاحظ ما يباينه
ويجافيه ، ونظهر ما يواكبه ويجاريه ، ولم نخرج من هذه الجولة بنتيجة
محددة ، ولا حملنا القارئ حملاً على رأى معين ، أو اعتقاد محدد ، بل
تركناه يزامننا فى الطريق ، ليتحقق فى النهاية من ان : (الاسلام انطلاق لا
جمود) وليكون له فى هذه المباحث خير معاون على الهداية والاصابة وحسن
التبيز .

والله من وراء القصد وهو ولى التوفيق .

مصطفى الرافعى

الإسلام عبر العصور

* ان الاسلام لم يتغير ولم يتبدل رغم تطاول الايام عليه
وتصارع المدنات حوله ، وليس بينه وبين أى عقيدة أخرى
عداوة ولا خصام وهو لا يضرر الحق لأى دين .

* ومن حسن حظ الاستعمار ان هذه البلاد كانت
تخضع - فى آخر أيامها - لحكم يحمل الاسم الاسلامى
وليس فيه شىء من روحه أو مقاصده .

* ان مستقبل الاسلام زاهر كالبحر ، والشعوب
الاسلامية تتفاعل فى رحابها قوى ناشئة ، وطاقات فتيّة
خلاقة . فعليها وعلى الأديان السماوية عامة أن تبدأ جهادها
فى اعادة البناء .

ولقد تطوعت بعض القوى فى فترات قصية ودانية ، وعصور ماضية
وحاضرة ، على الايقاع بين الاسلام بالذات وبين المدنية ، واطهار هذا الدين
الحنيف بمظهر المبدأ المتعنت المستبد ، والذى لا تسرى فى أوصاله الحياة
الا اذا تغذى من دم المدنية المسفوح وثقافتها المبددة .

رسالتنا :

ودراستنا الآن حول الاسلام فى أمسه ، وحاضره ليست الا قصة
صادقة عن هذه العقيدة عبر فترتين متباينتين من التاريخ ، نهضت فى أولاهما
نهضة جبارة ، وسكنت فى ثانيتهما سكونا عجيبا . ومن حق الاسلام علينا ،

ونحن رواده واتباعه ، ان نظهره للسلا عذبا صائبا كما تنزل من السماء وان ندرسه كسبدا وعقيدة ، تقف وجهاً لوجه مع الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية وسواها من مبتكرات العقل الانساني وان نلم بجوهره وروحه ليتسنى لنا من بعد ان تنفى عنه الاوشاب والاعراض ، وان ننزه وجهه الكريم من الكلف المفتعل ، وخصوصا بعد ان استغل هذا الدين أعداؤه ، ونسيه ابناؤه في عصور الجهالة والظلام .

حقيقتان :

وقبل ان انتقل الى صلب الموضوع ، أحب أن أقرر أمرين لا جدال فيهما ولا شك في صدقهما وهما :

أولاً - ان الاسلام كدين سماوى لم يتغير ولم يتبدل رغم تطاول الايام عليه وتصارع المدنيات حوله . فالقرآن ، كلام الله العلى الاعلى ، ما فتىء ينبوع الاول الذى يسقى هذه الدوحة الشامخة العملاقة الممتدة الفروع والأغصان والاطلال ، وسنة الرسول ما فتئت المشكاة الهادية . اما الذين تغيروا وتبدلوا وباعدهم حاضرهم عن أمسهم ، اما الذين أضعوا القرآن وضلوا سواء السبيل ، فهم المسلمون اتباع ذلك الدين الذى كان نظاماً وعقيدة ، ففهموه اليوم مجرد شعائر تقليدية ، ومظاهر عادية لا جدوى فيها ولا عطاء .

ثانياً - ليس بين الاسلام وبين أى عقيدة أخرى أو شعب آخر عداوة تقليدية كما يدعى بعض انصاف المتعلمين ، وهو ، كفكرة ، لا يضم الحقد لاي دين آخر كما يحلو لبعض تجار الأديان ان يتخرص ويختلق . وسنعرض لهذه الناحية بالتفصيل الوافى فيما بعد ، والذى يهمننا ذكره الآن هو تعلق الخصام بين الاسلام ، أو على الاصح بين المسلمين وبين سواهم .

الاسلام بين الشرق والغرب :

لقد ولد الاسلام ، في الشرق ، شأن باقي الاديان السماوية ، ولم يحالفه الحظ ، أو على الاصح لم يحالف جنوده التوفيق في غزو الغرب واخضاعه لمنهجهم في الحياة وطريقتهم في العيش .

غير أن هذا الوضع لم يكن عائقاً لان تنوطد الصداقة بين الشرق المتدين والغرب المتدين ، وتلك هى أخبار (شارلمان) والرشيد غنيسة عن الدلالة والترديد .

وتوثقت أواصر الاحترام بين الشرق والغرب ، وشاء سوء الطالع ان يسير كل من الصديقين الودودين في اتجاه مغاير للاخر ، وتعاقبت الاجيال وتغيرت الاحوال حتى كان هذا العصر ، فاذا بالغرب قد تخلص من قيود دينه السماوى وتكر لمفاهيمه ، وتمنطق بالعقل الانسانى ، وبالمقدرة البشرية ، وسار أشواطاً بعيدة في هذا السبيل . اما الشرق فقد فعل العكس تماماً وما زال يراجع نفسه ويطلع أمسه ويقلب تراثه السماوى بين يديه حتى بليت يدها واعتل فهمه ، وسقمت حيويته وشلت حركته وغفا ردها طويلاً من الزمن .

جرثومة الاستعمار :

ومن هنا ، من وهن هذا وتطلع ذلك ، من خبول هذا وطمع ذلك ، نشأت الجرثومة القاضية التى نخرت جسم البشرية.. نشأ الاستعمار وملأت تلك الفكرة بصورها الخلافة ، من سيطرة وتسلط وثروة وملك ، ادمغة العالم الغربى فى العصر الذى يسميه المؤرخون عصر النهضة .. وبرزت الى الوجود صور الخصومة الحادة حيناً والدائمة حيناً آخر بين الصديقين القديمين لتخلى كل منهما عن كنزه واقلاع كل منهما عن فكرته .

نظرة على الماضي :

بعد أن قدمنا هذه الايضاحات الاساسية بالنسبة لحقيقة الاسلام ،
والهاماة بالنسبة لبحثنا ، ينبغي ، لنا ، كى نستطيع ان ننقل القارىء الى جو
الاسلام الصافى وننقل اليه روائع صورته وبدائع أعماله ، ينبغي لنا أن نعود
بالزمن القهقرى خسة.عشر قرناً ، الى العصر الجاهلى الاعمى ، الى عصر
الضياع الروحي وقلق المصير ، يوم كانت جزيرة العرب تفرق فى الجهل
والظلام والدم والفتنة ، ويوم كانت الكلمة فيها للسيف الراعف والساعد
القوى ، ويوم كانت مصائر الناس ومقاديرهم فى قبضة وثنية ساذجة ، ويوم
كانوا هم أنفسهم عبيداً لأصنام لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً ، أصنام مع
نحاس بليد جامد ، أو من تسر يلتهمه عباده اذا جاعوا .

بداية المعجزة :

فى تلك الغمرة من الضلال ، أشرفت فى بيت من بيوت قريش طفولة
كانت فى سجن الزمن صفحة بعث وانطلاق .. فلقد ولد محمد بن عبدالله
وولد معه تاريخ جديد حافل بالاحداث التى قدر لها ان تكون يوماً مرتكزاً
لنهضة جبارة ، وغد مجيد .

وشب اليتيم ليضطلع باعباء الرسالة ويشن على الوثنية حرباً لا هوادة
فيها ولا لين ، ويدعو الى اله واحد لا شريك له ، ويركز فى نفوس العرب
قيماً جديدة قامت عليها ركائز وثبتهم الكبرى التى حركت ركب الانسانية
ودفعته بقوة وعزم الى الطريق السوى والحق المين .

وقضى محمد وله من العمر ثلاث وستون سنة ، فما هى التركة التى
خلفها للبشر من المبادئ والأسس والأصول ؟

حقوق الانسان :

أما حقوق الانسان فقد كان محمد أول واضع لهذه الحقوق التي ادعتها الثورة الفرنسية فلخصها بكلمات ثلاث أو شعارات ثلاثة : الحرية والمساواة والاخوة . ثم انبرت أميركا بعد ذلك تزعم لنفسها سبق وتعلن في وثيقة الاستقلال عام ١٧٧٦ انها تعد الحقائق التالية من البديهيات :

✽ خلق الناس جميعا متساوين . وقد منحهم الخالق حقوقا خاصة لا تنتزع ، منها : الحياة والحرية والسعى وراء السعادة .

✽ اما المساواة ومعناها أن يكون الناس جميعاً متساوين امام القانون، متساوين في الحقوق والواجبات ، فقد أكدها محمد بقوله : « الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » و « كلكم لآدم و آدم من تراب » .

ولم يكتف بالقول المجرد بل أتبعه بالعمل الحازم العادل . واجاب صحبه حين طلبوا منه العفو عن سارقة لشرف أسرتها ومكاتها : « انما اهلك من كان قبلكم أنهم كانوا اذا أذنب الضعيف فيهم عاقبوه واذا أذنب الشريف تركوه والله لو سرق فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها » .

✽ واما المساواة في القضاء فلم تكن للنبي العربي سوى مجلس قضائي واحد يمثل أمامه الناس كلهم دونما تمييز بين رفيع ووضيع ، وغنى وفقير .

✽ واما المساواة في التوظيف فليس أدل عليها من هذا الحديث الشريف : « من ولي رجلا شيئا من أمور المسلمين وهو يعلم أن فيهم من هو أولى منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين » .

✽ ومثل هذا يقال في الضرائب فانها تجبى من الناس على قدم المساواة فمن كثر ماله كثرت تكاليفه ومن قل ماله قلت تكاليفه .

✽ واما الاخوة فالنبي العربي هو أول من نادى بالاخوة العقائدية والاخوة الانسانية : «انما المؤمنون اخوة» والانسان أخو الانسان أحب

أم كره، وهو أول من آخى بين الأنصار والمهاجرين حتى تقاسموا البيوت والاموال ، وأول من خص الفقراء والمساكين بحظ موفور من موارد الدولة حتى بات هؤلاء يشعرون بالوجود الصحيح والكرامة الكاملة في أمتهم وشعبهم . ولقد تأثر خلفاؤه من بعده بهذا السلوك الانساني الرفيع ، فأعطوا الامثيل في التغاضي ، وما ونوا عن الجهاد لتحطيم الحواجز الطبقيّة واشاعة المساواة والعدالة بين الناس .

✽ أما الحرية .. فقد هيا لها الاسلام أنقى الاجواء ؛ لقد حرم الشرك بكافة صوره وحاربه بكافة أشكاله ، فالله العلى الاعلى هو وحده رب الناس فمن يعبد غير الله فهو مشرك ، ومن يستعبد غيره فهو أيضاً مشرك ، وفي هذا قضاء على كل أنواع العبوديات . لقد حرر الاسلام الناس من الرق أولاً ، حرر أجسادهم من سوط السيد وطغيانه ، ثم حرر بعد ذلك أفكارهم وعقولهم ، وفي ظل هذا التسامح وقف خليفة قوى الشخصية عبقرى الرأى هو عمر بن الخطاب وصاح في وجه أولئك الذين يطمعون في استعباد الناس واذلالهم صيخته التاريخية المشهورة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .

الاسلام والعقائد :

ان أنصح صفحة ترصع تاريخ الاسلام هى الصفحة التى خلّفها بعلاقاته مع الاديان وآثاره في معاملتهم . لقد كان لقاءه مع المسيحية واليهودية لقاء محبة واحترام : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » . وكان شعاره في رسالته : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، كما كان شعاره في دعوته : « لا اكراه في الدين »

ويحق لنا أن نقول بفخر ان الاسلام كان يحسى حرية المعتقد ، ويحتضن بالذات أهل الذمة .

ولم يسمع عن رسول الله وعن خلفائه من بعده انهم قتلوا نصرانياً لانه لم يسلم ، ولم يسمع عنهم انهم عذبوا كتابياً أو سجنوه أو منعوه من التعبد واقامة شعائر دينه ، ولم ينقل عنهم انهم خلال فتوحاتهم الحربية ودعواتهم السلمية ، هدموا كنيسة أو قوضوا بيعة وانما قال التاريخ : ان رسول الله صالح نصارى نجران فكتب لهم عهداً جاء فيه :

« ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد على أموالهم وأنفسهم وملثتهم وبيعتهم وغائبهم وشاهدهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانته ولا كاهن من كهاتته ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يبطأ أرضهم جيش » .

المسلمون وأهل الكتاب :

وتقد كان للاسلام مع أخوانه اتباع الاديان السماوية الاخرى قصص يرويها التاريخ باعجاب واكبار وتقدير ، اعجاب بالدين الذي حارب من أجل العدالة وبذل من أجل سيادة الحق ، وتفانى من أجل الكرامة الانسانية ، الدين الذي لم يكن بينه وبين مواطنيه من اتباع الديانات الاخرى ولاء محتوم ولا طاعة مفروضة ، بل كان من صور هذا الوفاء ، كما حدثنا البلاذرى فى فتوح البلدان انه لما جمع هرقل جموعه ، وجيش جيوشه وسار الى المسلمين ، بعد أن خرجوا من وقعة اليرموك وأكاليل الغار على نواصيهم وبعد أن كانوا قد استوفوا الخراج من أهل حمص ليدفعوا عنهم أذى الحرب وليغنوهم عناء القتال . قال البلاذرى : « رد المسلمون على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا لهم : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص ، لولايتكم وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم ولندفعن جنود هرقل عن المدينة مع عاملكم » .

وقال البلاذرى أيضاً : « ونهض اليهود - اليهود أنفسهم - قائلين : والثورات لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا ان نغلب ونجهد . فاعلقوا

أبواب المدن وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود .

رأى مؤرخ غربي :

ولنستمع الآن الى مؤرخ آخر ، انه (آدم متز) حيث يقول :

« ان بعض الخلفاء كانوا يحضرون مواكب النصارى وأعيادهم ويأمرون بصيانتها وان الحكومة في حالة انقطاع المطر كانت تأمر بتسيير مواكب يسير فيها النصارى وعلى رأسهم الاسقف واليهود ومعهم النافخون في الابواق ، وان الاديرة كذلك ازدهرت وتكاثرت . ولم يقف تسامح المسلمين عند هذا الحد ، فهذا آدم متز يقول مظهراً استغرابه وتعجبه : « من الامور التي نعجب بها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الاسلامية فكأن النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الاسلام » .

جريمة الاستعمار :

ان ما فتحنا عليه أعيننا من انشقاق وطني وتباعد عاطفي ، وتباين في الغايات والاهداف .. كل هذا صنغته أيدي المستعمرين .. فانهم لم يجدوا حيلة انفذ ولا وسيلة أدهى من أن يلبسوا مسوح المتدينين ، ويعلقوا على صدورهم أوشحة الصالحين ويرسموا على وجوههم براءة القدسين ، وهم — في الواقع — أبعد ما يكونون عن طهارة الدين وترفع رجاله ، ونواياهم ادنى من أن توصف الغيرة على مصالح الاله ، لانهم يعبدون أنفسهم ، ويقادسون مصالحهم ، ويحترمون تجارتهم ، وما الله والدين من بعد ذلك الا وسيلة ناجحة بفتحون بها أسواقاً جديدة ، ويستعبدون بها شعوباً ضعيفة ، ويمتلكون بها بلاداً واسعة غنية .

ولقد كان من حسن حظ الاستعمار في السابق ، أن هذه البلاد خضعت في آخر أيامها لحكم يحمل الاسم لاسلامى وليس فيه شىء من روحه أو مقاصده

وليس له مثل طريقته أو منهجه ، وكان المسلمون تائهين في غمرات من العماية والجهل والفوضى ، جعلت بلادهم مسرحا عجيبا من المتناقضات والمتباينات . فباسم الدين ولصيانة الطوائف ، تقيم هنا دولة من الدول ، وباسم تحضير الناس وتمدينهم تقيم دولة هنالك ، ولا تتورع هذه الدولة من أن تحتضن زوراً وبهتاناً طائفة من الناس وتصطنعهم لنفسها ، لتقف في وجه الدولة الأخرى التي تحتضن طائفة أخرى .

وياويح الشرق ! لقد لبث فترة طويلة من الزمن ، تحارب يمينه شماله ويقاثل شقيقه شقيقه ، ويجد النار مندلعة في داره ، يحترق منها كبده ولا يدري انه هو وقودها ، وان أبناءه هم حطبها ولهبها ، ولا يدري انه هو مغمض العينين الى هاوية ليس لها قرار .

لا تعصب في الاسلام :

لم أنشأ التبسط في هذه النقطة الا لأني وعدا قطعته من قبل بأن أظهر انسجام الاسلام في حقيقته مع غيره من العقائد ولأقرر أمراً هو ان الاسلام في صفاته بعيد جداً عن التعصب ، وان الجهل أو الغرور أو الدس الاجنبى أو هذا كله مجتمعا هو الذى أثار في فترات مختلفة من تاريخنا شيئاً من الحقد والريبة وروح العداة بين المسلمين وغير المسلمين .

غير ان الامل يخضوضر الآن في نفوسنا ، ويملاً ثقة وايماناً بوحدة الشعوب وتآلفها . وذلك بعد أن برز الوعي الاجتماعى الى الميدان ، وبدت تباشير النهضة العربية على هذا النصف الاخير من هذا القرن ، وظهرت نتائجها الحلوة الباهرة بتحطيم امانى الاستعمار فى أكثر من معركة واحدة ، وارتفعت مطارقها لتهوى على رأس الاستعمار نفسه .. وان غداً لناظره قريب .

الاسلام والمدنية :

تلك هي الانتصارات المعنوية التي سجلها الاسلام في بداية عهده حتى أخذ بناؤه يتشامخ ، ورقعته تتسع ، فتراه بعد أن اطمأن الى الوضع الروحي والخلقى وحقق حلم الانسانية بالرخاء والسلام والعدالة ، تفرغ بعلمائه وفلاسفته وأدبائه وصناعته ومفكره الى العمل المثمر المنتج ، تفرغ كل هؤلاء ليعطوا للانسانية حضارة من أزهى الحضارات ، وليتركوا للناس ميراثا غنيا بالفوائد حافلا بجلال الفتوح .

الانتصارات العلمية والعملية :

وسنلقى الآن نظرة عجلية على انتصارات الاسلام العملية والعلمية في سائر الميادين والتي تضيء على المجتمع الصفة الحضارية والقيمة المدنية .

تعد تعلم العرب اللاتينية والأسبانية وتقبلوا عنهما ، حتى اذا اشتد عودهم وتمثلوا ما نقلوه ، بدأت شخصيتهم العلمية تظهر وتنمو ولم يلبثوا ، كما يقول غوستاف لوبون ، « أن أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب فانطلقوا من قيود التلمذة لليونان وأخذوا يختبرون مسائل العلم ويجربونها . قال (دولامير) ، صاحب تاريخ علم الفلك : « اذا أعددت بيز الاغريق راصدين أو ثلاثة ثم نظرت الى العرب ، أمكنك أن ترى بينهم عددا كبيرا من الرصاد » .

وأما في الكيمياء فيقول (غوستاف لوبون) : « انك لا تجد عالما يونانيا استند في مباحثه الى التجربة ، مع أنك تعد مئات من علماء العرب الذين قامت مباحثهم الكيماوية على التجربة ، فجابر بن حيان أستاذ ل (لافوازيه) ، أبى الكيمياء الحديثة .

لقد عرف العرب الرياضيات فاخترعوا الجبر ونبقوه في علم الهندسة ، وبرعوا في الفلك فأقاموا المراصد في دمشق وسمرقند والقاهرة وفارس

وطليطلة وقرطبة ، وتوصلوا الى نتائج علمية لم يتوصل اليها العلم فى أوروبا الا بعد ألف سنة ، ونبغ منهم فى هذا العلم أمثال البتانى وأبناء موسى بن شاكراً وأبو الوفاء البيروتى .

• وعرفوا الفيزياء والميكانيك واستغلوا مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب وأتقنوا فن الدباغة وتسقية الفولاذ . وثبت علميا أنهم هم الذين اخترعوا بارود المدافع السهل الانفجار .

• وفى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تكتب على الرقوق ، وهى الجلود ، كان العرب يستعملون الورق وتزدهر فى بلادهم مصانعه وينتج عن ذلك نشاط فى حركة التدوين والتأليف والنقل يثرى المكتبات العامة والخاصة ويزود الثقافة العربية بزاد لا ينفى .

• واقتحم العرب البحر ، فحاضوا عبابه ، وأذلوا متونه بأساطيلهم ، واستخدموا فى الملاحة البوصلة فكانوا بذلك أول من استخدم هذا الاختراع الصينى فى أسفارهم .

• وبحثوا فى الجيولوجيا وتحولات الكرة الأرضية وأعلن ابن سينا أن هذه التحولات انما هى نتيجة تطورات بطيئة تمت بتعاقب العصور ، وجاء علم الأرض الحديث يثبت صحة هذه النظرية .

• وبحث علماء العرب فى النباتات واستخدموا الكثير منها فى أغراض طبية وأنشأوا لها الحدائق وزرعوا فيها أندرها وأجودها .

• وظهرت مواهبهم غنية خصبة فى الطب فأثروا بمؤلفاتهم المكتبة الغربية وظلت هذه المؤلفات مصدرا ومرجعا تعتد عليه الجامعات الأوروبية فى تدريس هذه المادة ، ونبغ فيهم « أمثال الرازى » الذى بحث فى الحميات ذات البثور كالحصبة والجدرى وأمراض الاطفال وعلم التشريح ، و « على بن العباس » الذى كتب فى الطب النظرى والطب العملى ، والرئيس

« ابن سينا » الذى نقلت كتبه الى أكثر لغات العالم وظلت مرجعا عاما لأطباء العالم وأساسا للمباحث الطبية فى جامعات فرنسا وإيطاليا طوال سنة قرون ، ولم ينقطع أطباء جامعة (مونبليه) عن شرح نظرياته وتدريس كتبه الا منذ أقل من قرن .

و « أبو القاسم » القرطبى أشهر جراحى العرب الذى اخترع كثيرا من آلات الجراحة ورسما فى كتبه والذى قال فيه العالم الطبيعى الكبير (هاللر) : « كانت كتب أبى القاسم المصدر العام الذى استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر » .

• وعرف العرب علم الوقاية وأنشأوا المصحات وأقاموا المارستانات ، وبرعوا فى فن الصيدلة وتحضير العقاقير .

• ولم يهملوا الفنون فازدهرت الموسيقى والغناء فى بعض عهودهم ، وترقى فن العمارة وتميز ، بعد أن مر بأدوار تقليدية ، بطابع خاص ما تزال شواهدة قائمة فى بلاد المجد المفقود ، فى قرطبة وأشيبيلية والحمراء .

ما هو سبب الوهن :

هذه هى الدلالات التى يعرفها الناس ويتناقلها الرواة ، وتزدحم بها بطون الكتب وهى خير شاهد على أن الاسلام قد أوجد من العرب ومن معتنقيه جميعا أمة تعرف رسالتها وتدرك طبيعتها وتؤدى واجبها .. واجبها الذى ينحصر فى كلمة واحدة هى الدعوة الى الله والنهوض بالعلم وانى لو أفرطت فى ايراد الامثيل واثبات الشواهد لأعيانى ذلك وأجهدنى لأن الكتب حافلة بأخبار العظمة .. عظمة الخلق الاسلامى ونبله ، فياضة بأنباء ذلك الطراز الرفيع من السلوك الاجتماعى والفردى الذى أتاح لدعاة الاسلام أن يسيطروا على معظم العالم القديم المعروف آنذاك ، وأن يجعلهم فى نظر الشعوب المغلوبة على أمرها هداة لا فاتحين ، ومهذبين لا منكبين .

ما الذى أوهن اذن هذه الدعوة ؟

من الذى جعل المسلمين فى آخر الركب الحضارى ، وأطمع كل ذى نزوة أو رغبة بهم ؟

هل فقد الاسلام حيويته ، أم أن المسلمين هم الذين فقدوا اخلاصهم ؟

أخبار الانحطاط :

من حق القارىء علينا ، أن نرؤى له أخبار الانحطاط فى المسلمين كما روينا أخبار البعث وذلك لكى تترابط حلقات البحث وتتكامل دراسته .

لقد بدأ البناء الاسلامى ينهار من اللبنة الأولى ، من لبنة الايمان التى سواها نبي الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم فالفكرة الأولى محصورة بالمسلمين دون سواهم ، وهى فى العرف العقائدى الطريقة التى رآها الاسلام مثلى فى تنظيم علاقات البشرية أفرادا وجماعات بربهم واخلاصهم له .

والفكرة الثانية ، هى الجهر بهذه العقيدة بعد فهمها روحا ومعنى ، وتطبيقها بالحسنى ، دون انتقاص من حق شريعة من الشرائع أو مجافاة لعقيدة من العقائد أو اكراه زيد أو عسرو من الناس .

صور قاتمة :

غير أن المسلمين بعد عصر الراشدين مباشرة بدأوا فى تحوير هذه المبادئ وتسخير بعض العواطف ، وهكذا تابعوا السير ينتفضون كل عصر فكرة ، ويزلزلون فى كل حقبة عقيدة ويبدلون فى كل فترة رأيا .. حتى كان عصر الانحطاط وانصرف الناس عن الدين كعقائد مقرونة بالأعمال، وروحانية مقرونة بالبحث النظرى والوعى العلمى ، وتمسكوا به (أى بدينهم) كالفاز واردة وتقاليد جامدة ، وتعصب فريق منهم تعصبا أعمى لهذه التقاليد ببلاهة وجمود لا يصدقهما العقل ، وأولع فريق آخر بالجدل العقيم والمناظرات

الفارغة ، وحمى وطيس الآراء والمذاهب فيهم ، وبالرغم من أن أصحاب المذاهب من الأولياء الصالحين فإن أتباعهم في خراسان (في آخر الدولة العباسية) كانوا يتطاحنون ، ويتذبحون وتنهز بينهم الدماء ، ولقد روى أن أهل قرية منهم من الشوافعة قد أفنوا أهل قرية أخرى عن بكرة أبيهم ، لا لأنهم من عبدة الأوثان بل لأنهم من الأحناف . كما روى عن فريق من هؤلاء الأحناف أقوال لاذعة بالنسبة لآخوانهم الشوافعة ، منها « ان من ارتحل الى مذهب الشافعي يعزر » .

ولقد كان طبيعيا والحالة هذه أن تنتقل السلطة والرياسة الى غير العرب من الفرس والماليك والأتراك ، وذلك بعد أن انغمس أولئك في بحر من الترف والنعيم وتاهوا في خضم من المتع واللذات ، تحمر لذكراها وجنة التاريخ أسى وتدمع لها عينه لوعة .

وكان طبيعيا أيضا أن تنحط الحياة الفكرية انحطاطا لا مثيل له في تاريخ الأمم وأن تهمل العلوم العالية والمعارف الكونية وأن يهدر الوقت ويضيع الجهد — ان كانت هناك جهد في فلسفات نظرية عقيمة ودراسات بيزنطية فارغة — وأن تعمل كل هذه المعاول في تهديم كيان المدينة التي زهت في بغداد وازدهرت في دمشق وأن تكون نهبا مقسما ومغنا يسيرا لكل طامع قوى .

درس من ملك رنج :

قال رتبيل ، ملك رنج وسجستان ، لرسل يزيد بن عبد الملك ، وقد جاؤوا اليه يطالبونه بالخراج ، وهو أول مظهر من مظاهر قوة الدولة وسلطانها ، قال لهم : ما فعل قوم كانوا يأتون خصاص البطون سود الوجوه من الصلاة ، نعالهم خوص ؟ فقالوا له : انقرضوا ، قال : أولئك أوفى منكم عهدا وأشد بأسا وان كنتم أحسن منهم وجوها ، ثم منع الخراج عن أمراء المسلمين وخلفائهم .

عصوم مظلمة :

ومرت بعد ذلك على المسلمين عصوم كالحجة السوداء ، شديدة الظلمة ، اذا تتبع أخبارهم الدارس فانه لا يصدق أنهم أحفاد أولئك الميامين الذين سبق ذكرهم ، ويتردد في أن ينسبهم الى تلك السلسلة من الأبطال أمثال : أبى عبيدة وخالد وعمر وطارق وصلاح الدين .

لقد محت جحافل التتار والمغول معالم العظمة وسيماء البطولة والقداء في تلك الأمة ، وكأنهم قد استبدلوا الجبن بالاقدام ، والوهن بالشجاعة ، والذل بالأباء ، والخوف بالشمم .

الهوان العجيب :

روى لنا ابن الأثير حادثة أليمة علق عليها بقوله : « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها ، فأنا أقدم اليها رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى المسلمين ؟ ومن الذى يهون عليه ذكر ذاك ؟ ولو قال قائل أن أهل العالم منذ خلق الله آدم لهم يبتلوا بمثلها لكان صادقا فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها .. »

أما هذه الحادثة فهي أن أحد التتر أخذ رجلا ولم يجد ما يقتله به ، فقال له ضع رأسك على هذا الحجر ولا تبرح ، فوضع رأسه وبقي الى أن أتى التترى بسيف وقتله !!

المرأة الجبارة :

وحادثة أخرى وهي أن امرأة (أجل امرأة) من التتار دخلت دارا وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلا .. ويقول ابن الأثير : وأمثال ذلك كثيرة ويكفى أن نعلم أن الناس كانوا يتناقلون فيما بينهم أن من حدثك أن التتر انهمزوا فلا تصدقه !

عصر الدولة العثمانية :

سأقف عند هذا الحد من عرض الصور عن انحطاط المسلمين وذلك لأن الجميع يعرفون ماذا حدث بعد ذلك . يعرفون أن التكتبات توالى وأن الغرب فتح عينيه على الشرق أو على الأصح فتح فاه .

ويعرفون أن الدولة العثمانية قد أرخت جناحها المظلم على بلاد المسلمين ، وبدأ في نهاية حكمها عهد أسود من المظالم والويلات والطغيان ، ويعرفون كيف الح الهزال على الرجل المريض ، وكيف طمع الغرب في تركته الضخمة حتى اذا كانت الحرب الكبرى اغتتمها الذئب المتربص فرصة للانقضاض على هذه التركة ، ويعرفون كيف استأثرت بالميراث أقوى دول أوروبا (انكلترا وفرنسا ، والى جانبها ايطاليا) ، ويعرفون كيف مدت هذه الدول الثلاث سلطانها تحت أسماء مختلفة من احتلال واستعمار وانتداب ووصاية .

حاضر الاسلام :

بعد هذا العرض المفصل نرى أن الأمة الاسلامية — كطائفة ذات عقيدة وأسلوب خاص في الحياة — قد خضعت ، شأن بقية الأمم والشعوب ، للقاعدة الاجتماعية التي تجعل تاريخ الأمة مهما امتدت أصوله ومهما تعاضلت فروعه ، يتبع منهجا واحدا هو : الطفولة والشباب والشيخوخة .. ثم الانبعاث ..

وأمنيته أن أكون قد وفقت في تصوير الأطوار الثلاثة الأولى لحياة المسلمين . واستخراج الحكمة من مكونات أحداثها لما في ذلك من علاقة وطيبة بعقيدتهم ودينهم .

بقى الآن أن نتطلع الى الحاضر .. وأن تشوف المستقبل .

ان حاضرا الاسلام زاحرا كالبحر الخضم تصطبغ على اديمه امواج
مؤارة وان الشعوب الاسلامية اليوم تتفاعل في رحابها قوى ناشئة ، وتتعاظم
في ارجائها طاقات فنية خلابة ، صلب عودها واشتد ساعدها ، نفضت عن
اثوابها غبار الماضي وعن أعينها نغاس الظلام بعد أن امتدت أصابع النور من
فجر النهضة توقظ فيها كوامن الحيوية وبواعث الانعتاق ، في هذه الفورة
التي يلحظها المعنيون بدقائق الأمور في الشرق والغرب ، لابد لنا أن نقرر
أن حركة الاسلام — ان صح التعبير — في القرن العشرين غير حركته في
القرن الثامن ، فقد انتفت بينه وبين الدنيا فوارق الزمن وحواجز التقاليد .

ولم يعد أمامه منفسح من الوقت أو من المكان يهتم فيه بالدعوة الى
الله .. كما كان يفعل في حقبة شبابه لأن كلمة (الله) سبحانه وتعالى فقدت
سحرها ولم يعد لها أثر في أدمغة البشر ، ولأن فريقا منهم أصبح ينظر الى
نفسه ويقول أين الاله ؟ ولأن المسلمين أنفسهم لهم من دنياهم ما يشغلهم عن
آخرتهم ولهم من ذاتهم ما يغفل أيديهم عن أهدافهم .

غير أن هذه الأوضاع ، بتعقيدها وصعوبتها ، وهمومها وأحزانها ،
وكفرها والحادها ، لا تعنى ان الاسلام فقد مكانه في الوجود .. وفقد عمله
في الخلق .

انقاذ وقيادة :

لا ، ان الاسلام ما دام حيا نابضا في جوانح رجاله ليحمل أماتته العظمى
ورسالته الكبرى ، التي ظل يحملها في أطوار حياته الناهضة والجامدة ،
السعيدة والبائسة ، هذه الامانة هي انقاذ الانسان من حيوانيته ، والسمو به
الى روحانية مترفعة ، هي قيادة الناس نحو احترام ذاتهم لا بانكار الاله
ورفض هيمنته بل بمعرفة الانسان وادراك واجبه وطبيعته ، فان كل ما نشاهده
من تمكن الحقن بين البشر ، واستحكام البغضاء فيهم ، حتى لا تمر فترة على
الارض دون أن يختضب اديمها بالدماء ، وتلفها عباءة كالحة من النار

والبارود والدمار ، ان كل هذا يدل على ان الانسانية بحاجة الى الاسلام
والى كل دين سماوى آخر .

الصراع المقدس :

ان الصراع القادم ليس بين الاسلام وبين التيارات المادية والنزعات
الالحادية فحسب ؛ انه سيكون صراعاً مرأً بين قوى الخير وقوى الشر ، ؛
الروحانية بوداعتها وثقتها ، والمادية بجبروتها وجحودها ، ولن تقتصر نتائج
هذا الصراع على مبدأ بعينه أو عقيدة بذاتها فتحكم عليها بالفشل أو تنعتها
بالجمود ..

لا .. فان الالحاد ميكانيكى الطريقة ، حديث التفكير ، شديد البطش ،
وهو لن يتيح لانفاس الروحانية أن تتردد في صدور المجتمع ، ولن يترك
لحيوية التدين أن يسرى مفعولها في أوصال الناس .. اذ لا حياة للالحاد مع
فكرة الله أصلاً ، لأنه يعبرها وهما نسجه عقل الانسان وخياله فى حالة من
حالات الضعف والوهن .

اننا متفائلون :

وقد يتساءل البعض عن روح التفاؤل العجيب الذى أبديناه فى صدر
هذه الناحية من البحث وقررنا فيه امكانية الانبعث من جديد والجهاد من
جديد لخلق مجتمع حر متين ؟

ان الذى أملى علينا التفاؤل ، هو فعالية الاسلام وتطوره ، وعدم
مخافاته لوسائل البحث العلمى ، والاستدلال العقلى ، والطريقة المنطقية فى
الكشف عن معميات العقل الانسانى ومجهولاته . والاسلام هو الدين الذى
لا يقبل ايمان اتباعه بمبادئه ايساناً جافاً ، ولا يرضى أن يكون معتقوه
يحملونه اسماً لا حقيقة ، وثقلاً لا يقيناً . ومن مبادئ القرآن الكريم :
« فاعلم انه لا اله الا الله » وهو حين لا يقبل من أبنائه الا علماً راسخاً على

قواعد المنطق بالوحدانية ، يدعوهم بالتالى الى العلم بكل صغيرة وكبيرة حولهم والاحاطة بكل مجهول لديهم ، كما يدعوهم الى البحث فى اعماق السماء وما يتلأأ فيها وفى ارجاء الارض وما يدب عليها فيقول لهم : « قل انظروا ماذا فى السموات والارض » ، وطبيعى جداً ان النظر المطلوب هنا انما هو النظر العلمى البحت المقرون بالسمو الخلقى .

فالاسلام المتفاعل ، المتطور ، المتسلح بالعلم والمعرفة ، جدير اذن أن يقف وجها لوجه مع دعاة المادية ومهرجى الالحاد . وهو بوجهه الصافى واديمه الناصع خليق ان يكشف سوءاتهم حين يقابلونه ، وخليق بأن يظهر لهم مواطن الضعف فيهم ، ومواطن الانحلال فى طريقتهم .. اد لا يدحر الظلام الا النور ولا يذهب السواد الا البياض .

الاسلام والنظريات المادية :

ان تاريخ الدعوات المادية يدلنا على أنه كان وليد أزمت خاتقة لبعض الطوائف التى تمتهن الاستغلال .. وتطلب أى ربح .. الا الربح الحلال .. ومن منا لا يعلم ان الصهيونية حين فكر علماءؤها أن يسيطروا على الغرب ويهيمنوا عليه بنظرياتهم حفظاً لانفسهم من العصبية الروحية التى كانت تسيطر على دول أوروبا، ووضعا بذور النهضة العلمية المادية البحتة ، وشرعوا بمحاربة العقيدة الروحية محاربة لا هوادة فيها ولا لين سواء بأيديهم أو بأيدي عملائهم أو بوسائل الاغراء والتمجيد لكيان الملحدين . وليس أدل على ذلك من تلك المؤلفات التى ظهرت فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر طافحة ببذور الالحاد تدسها فى كل ناحية ، مليئة بسموم المادية تنفثها فى كل مكان . على أن القرن العشرين ما كاد يطل حتى أصبحت النظرية المادية تسيطر على العالم من كل جانب ، وحتى امتدت أصابعها الى أوساط التشريع ودست أقتها فى المذاهب الفلسفية الحديثة فسمعنا بـ (ماركس) و (انجلز) وسواهما كما سمعنا بالشيوعية والفاشية والنازية وغيرها من المذاهب

الاشتراكية والتي سيطرت على الجامعات وكافة الاوساط العلمية واستطاعت أن تخضع لمنطقها بعض الاوساط الدينية .. وحين اشتدت الصلة بين الشرق والغرب وأخذ طلابنا يتوافدون للدراسة لم يستطيعوا أن يتبينوا تلك النوايا الخفية التي دسها علماء المادة في الغرب في معطيات الفكر فنقلوها الى الشرق بقضها وقضيضها وخيرها وشرها ، نقلوها وهم يتيهون فخراً بالمظاهر الجديدة والأفكار الجديدة .. ظنوا أنهم باذاعتهم اياها انما يدللون على مبلغ علمهم وسعة ثقافتهم .. وفاتهم ان الافكار التي بهرتهم جدتها ، وخلصتهم جرأتها ، وسحروهم اسم مبتكرها ، وأعماهم حب التقليد عن التبصر والتفكير ، أجل فاتهم ان هذه الافكار ليس فيها من الجديد الا اسمها .. أما نتائجها .. وما تضمنه للمجتمع من الرخاء والسعادة .. فأمور سبقها اليها الاسلام وقررها منذ خمسة عشر قرناً تقريباً .

فقبل ان يكون ماركس وانجلز وسواهما من فلاسفة الاشتراكية كان الاسلام ابا للاشتراكية ، وكان محمد بن عبدالله امامها الاول .

الاشتراكيون أنت امامهم	لولا دعاوى القوم والغلو
ولو ان انساناً تخير ملة	ما اختار الا دينك الفقراء
داويت متنداً وداووا طفرة	واخف من بعض الدواء الداء

فالضمانات الاقتصادية التي جاء بها الاسلام ، وبوسعها أن تغني المجتمع عن المبادئ الاشتراكية وسواها من المبادئ ، كثيرة أهمها : الزكاة والوقف وقانون الوراثة وتحريم الاسراف والتبذير والفائدة والربا ومبدأ المصالح المرسلة ومبدأ شيوع الموارد العامة ومبدأ تحريم الترف ومبدأ تحريم الكنز وفي هذه الضمانات تظهر الخطوط الاشتراكية العملية التي يمكن لنظام الاسلام الاقتصادي بها أن يتوضح وان يستقر .

أما من الناحية الاجتماعية فبوسع الاسلام أيضاً ان يحقق العدالة الاجتماعية وأن يهدم حواجز الطبقات وأن يقيم اركان المجتمع الفاضل .

العمال بنظر الاسلام :

ولئن كانت النظم الاجتماعية والاشتراكية منها بوجه خاص تتغنى في عصرنا الحاضر بما حققته للمواطن من ضمانات وللعامل من حماية ، فانظروا الى أى حد يقدم الاسلام هذه الضمانات والى أى مدى يمجّد الطبقة الكادحة فلقد قال عليه الصلاة والسلام : « ما كسب رجل كسباً أطيب من عمل يده » ؛ وروى انه ذكر للرسول مرة رجل كثير العبادة ولكنه لا يعمل فقال رسول الله : « من يقوم به ؟ » قالوا : « أخوه » ، قال النبي عندئذ : « أخوه أعبد منه » ، ثم قال : ان الله يحب العبد المحترف ؛ ومر النبي يوماً على رجل فرأى أصحاب الرسول من جلد هذا الرجل ونشاطه في الاكتساب والارتزاق ما حملهم على الكلام فيه ؛ قالوا : « يارسول الله ، لو كان هذا في سبيل الله » ، فقال الرسول : « ان كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه فيعفها فهو في سبيل الله ، وان كان يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان » ؛ وورد ان الرسول عليه السلام قبل يداً ورمت من كثرة العمل ثم قال : « تلك يد يحبها الله ورسوله » ؛ كما ورد عنه قوله : « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له » .

مثل رهزى :

فأى تمجيد للعمل ، يفوق هذا التمجيد ؟ ألا يوازي هذا على الاقل التكريم الذى تريده الاشتراكية للعمل والعمال أما العامل فقد حماه الاسلام وأوصى بالمحافظة على حقه وحذر من انتقاصه والافتئات عليه ؛ وضرب لذلك مثلاً فيه كثير من البساطة ولكنه رائع التلقين ، فقد حكى ان رجلاً آواهم المبيت الى غار فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم ، فدعا كل منهم ربه باحسن عمل قدمه في حياته كى ينقذه من ورطته ، فكان الاول برأ بوالديه ، والثانى حفيظاً على الاعراض ، وتوجه كلاهما الى الله بصالح عمله فانفجرت الصخرة قليلاً عن فم الكهف ، غير أن ذلك لم يمكنهم من الخروج

حتى قال الثالث : « اللهم انى استأجرت اجراء وأعطينتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له فتمرت أجره حتى كثرت منه الاموال فجاءنى بعد حين فقال لى : يا عبد الله أد لى اجرى ، فقلت له : كل ما ترى من الابل والبقر والغنم فهو من أجرك ، فقال : يا عبد الله لا تستهزى بى ، فقلت : انى لا أستهزى بك ، فأخذته كله فاستاقه أمامه فلم يترك منه شيئاً . ثم قال : اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون » .

هذه القصة الرمزية درس رائع فى تفديس حق العامل ، فانت فى نظر الاسلام حين تبر العامل فكأنك تبر والديك وتحمى عرضك ، وانت فى نظر الاسلام حين تحفظ للعامل حقه تؤدى لله عبادة ، عبادة ليس السجود والركوع قوامها ، ولا الذكر والاوراد ، وانما قوامها صيانة الحقوق والعمل بروح الدين واتباع أوامر الله .

الضمان الاجتماعى :

ثم ما هو موقف الاسلام من الضمان الاجتماعى الذى يشكل ركيزة من ركائز الاشتراكية الحديثة ؟ والى القارىء بعض الامثلة الاسلامية فى هذا السبيل : سيق الى عمر بن الخطاب فى عام الرمادة ، وهو عام مجاعة ، اعرابى اتهم بالسرقة . ولما سئل الاعرابى عن التهمة اعترف ان الدافع الذى دفعه اليها قاهر غلاب ، فهو فقير يعيش من عرق جبينه وجنى يديه ، وعبثاً حاول ايجاد عمل لنفسه يتبه وأطفاله شر الجوع فلم يفلح . فقال ابن الخطاب على الصحابة يسألهم رأيهم ، فاجمعوا على تطبيق الحد بحقه ، ولكن عمر ، وهو عبقرية تشريعية خالدة ، ادرك بثاقب بصره الصلة الوثيقة بين الحاجة الملحة والجريمة ، وانتبه الى وظيفة الدولة الاساسية ووجوب تأمينها للعمل للجميع واعتبر اغفالها مثل هذا لاعرابى الفقير نفسيراً فى القيام بواجباتها والتزاماتها نحو كل مواطن فالتفت الى الاعرابى وفى عينيه دمة أكبر من السماح وأنبل ،

وقال له : اذهب يأخا العرب ولا تعد لمثلها . ثم التفت الى أصحابه وقال لهم : اجروا عليه من بيت المال الى أن يجد عملا .

ولن أسرد للقارىء قصة هذا الخليفة العظيم مع الارملة العجوز ، فكل قارىء يعرفها ويعرف دلالتها الاجتماعية ، كما يعرف بلا شك قصته مع ذلك الشيخ الذمى الذى رآه يتسول عند باب المسجد فتقدم اليه معتذراً وقال له : ما أنصفناك ! أخذنا منك الجزية شابا وضيعناك شيخا . ثم أمر بأن يرتب له من بيت المال ما يكفيه فى شيخوخته ويجنبه ذل السؤال .

من هذه الأمثلة ، يتضح لنا أن الاسلام يعرف أنواع الضمان التى شاعت فى النظم الحديثة كضمان المرض والعجز وضمان البطالة .

أما الاسلام السياسى فانه يعطى العالم كله أمائيل رائعة فى النبل والتسامى والأخوة والمساواة والدفاع عن الحريات وحب السلام والديمقراطية الصحيحة .

كيف تتم عملية الانبعاث :

السؤال الآن : ما العمل ؟ كيف تكون خطة الانبعاث ومنهجها ؟ وما هو الواجب الملقى على عاتق الاسلام كدين سماوى ليحفظ القيم الانسانية ويصونها من عبث العابثين ومكر الماكرين ؟ ومن هو الذى يحمل القدر الأعظم من مسئولية هذه الرسالة الكبرى ؟

ان الأصابع كلها تشير الى أن المتهم هو الدولة والفرد . وهذان المتهمان يحملان مسئولية الضياع وعليهما تتوقف نتيجة الانبعاث .

أما الدولة أو المجتمع فعليها أن تحقق العدالة بمفهومها المطلق ، وأن تطبق الحق وأن تنهج نهجا سلسيا بناء .. وهذه المبادئ وحدها اذ كانت محمية باسم الدولة كفيلة بان تضبط المجتمع فلا يتحلل ولا يتدنى ولا يتباغض ولا يتباين ولا تأخذ الافتراءات أو الأكاذيب ، ولا تؤثر فيه بسهولة

ويسر دعوات الهدم المغلف بالغيرة على البائسين والكادحين والفقراء ، ولا تؤثر فيه افتراءات الحرية الفكرية والانطلاق العقلى الذى ليس وراءه الا نفس اليقين بالخير والثواب ؛ وتدمير الايمان بالحق والفضيلة ... هذا هو واجب الدولة .

واجب المعبد والمعهد والبيت :

أما واجب الفرد ومسئوليته الكبرى فى الانبعاث فهى عملية ذاتية .

ومسئوليته العملية تقوم على ثلاث دعائم : المعبد والمعهد والبيت ، لان المعبد ، ان يخلص عمله وتنزهت رسالته ، وادى فريضة الفكر كاملة غير منقوصة ، واستغنى عن شوائب القرون الوسطى وقشور عصور الظلام وتقاليده الجهل والسطحية .

والمعهد ، ان رسمت أهدافه ، وخطت مناهجه ، ورتبت علومه ، وهذبت فصوله .

والبيت ، ان أرسيت دعائمه ، وأقيمت عمدته ، وكان فيه الوالد الصالح والوالدة الفاضلة .

كل هذه الشروط ، لو تيسر تحقيقها ولو وجد الاسلام المصنفى طريقه اليها ، وقبض لها التفاعل مع أسسه ومبادئه ، لو كان ذلك لضنت أرضنا أليق الناس بحمل رسالة السماء الى الأرض وأحفظهم لها وأشدهم تفانيا فى صيانتها وتقديسها .

بقى أن تتكلم عن مسؤولية الفرد الذاتية التى تنحصر فى شعور كل منا بأنه قيم على معان نبيلة وأهداف سامية ، وانه جندى من جنود الخالق ، وليس الشعور فقط بل العمل الجدى المشر فى احقاق الحق والأمر بالمعروف ، ولقد كان القرآن الكريم صريحا فى هذه الناحية فأوصى المؤمنين

جميعا أن يكونوا أمة من جنود الحق فقال : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

المشكاة الواحدة :

هذه هي صفحة المستقبل ان أردنا مستقبلا زاهرا يتيه على الماضى المجيد ، وذلك هو واجب الاسلام .. كما انه واجب كل الاديان السماوية وعلى الاخص المسيحية ، فان الحق والفضيلة لا يتبدلان ولو تبدلت زاوية النظر اليهما . وان الوقت الذى تفرق فيه الاديان بين أبنائها قد مضى الى غير رجعة وأصبح أجهل الناس يعلم ان الاديان السماوية انما انبثقت من مشكاة واحدة فجميعها من السماء وكلها من وحى الله ، ووحى الله لا يتغير ولا يتبدل .

انه ما جاء دين بعد دين الا ليزيد فى هيكل الهداية الربانية ركناً من الاركان أو يضيف الى قانونه الازلى مادة من المواد ، أو يخصص عاماً أو يعمم خاصاً ، أو يجدد دارساً أو يوضح مبهماً ، أو لينسخ حكماً قد انتهى اجله ولم يعد صالحاً للحياة . يقول السيد المسيح : « لا تظنوا انى أتيت لاحل الناموس والانياء انى لهم آت لاحل لكن لاكمل » ، ويقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ! « الأنبياء أخوة أبوهم واحد والأمهات مختلفات » ، ويقول الله تعالى عن القرآن الكريم : انه مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل، ويقول: « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم » .

متى ؟

ان محنة الانسانية كبرى . وعلى الاديان السماوية عامة أن تبدأ جهادها ، وعلى الاسلام خاصة ان يباشر فى اعادة البناء ، بناء الطود الذى ما زال يراود

أخيلتنا ، ويداعب ظله أمانينا ، وتلك هي الخطوة الأولى نحو السعادة التي
تنشدها الدول ، والسلام الذي تحار في ايجاده ، والمبنة الأولى التي
يتسامى بعدها هيكل شامخ ، من المحبة الانسانية والتفاهم البشرى والسعادة
العالمية .

الحرّيات العامة في الإسلام

* ان أول حرية نادى بها الاسلام هي حرية الانسان الشخصية ، على هذا الأساس منح الاسلام العبيد حرياتهم ، فأوجد للسيد حدودا لا يتعداها في معاملة رقيقة .

* حطم الاسلام أغلال الانسان وانبرى يعطيه حرياته ويدافع عنها بعزم وبسالة .

* ان الجهل والغرور والفساد الأجنبي هو الذي أثار الحقد والريبة في فترات من الزمن بين المسلمين والمسيحيين والتاريخ جدير بأن يعطينا العبرة والموعظة في هذا السبيل .

جاء الاسلام في عصر كانت البشرية فيه تنردى في مهاوى الجهل والتأخر ، وتقاسى أشد المحن ؛ وكانت المجتمعات القبلية لا تعرف معنى للحرية بمفاهيمها الحديثة اللهم الا حرية الغزو والقتل والسبي ، فأراد الاسلام ان ينظم حياة الفرد لانه كان يعلم انه متى نظّم الفرد استطاعت الأمة أن تقيم دولة وان تعطي حضارة وان تدفع ركب الانسانية الى الامام .

مشكلة الرق :

وأول مشكلة مزمنة من مشاكل العبودية جابها الاسلام ورأى انها توقف التطور الاجتماعي وتحول دون رقي المجتمعات هي مشكلة الرق .

فالانسان : هذه الثروة البشرية الكثيرة الطاقات المتنوعة النشاطات
يجب أن يرتفع عن مستوى السلعة ، السلعة التافهة التي تباع وتشترى فتتخط
ثمناً وتسمو ؛ بقدر ما تقدم للمشتري من منافع .

والانسان : هذا المخلوق الراقى المهيأ للسيطرة على قوى الطبيعة
وتسخيرها لخيره يجب أن يتحرر من قيوده ، ويجب أن تتحرر ارادته ويتحرر
جسده ، ولكن كيف يستطيع الاسلام أن يعالج مرضاً اجتماعياً مزمناً ينهش
سمعة الانسان منذ آلاف الأجيال ؟ كيف يستطيع أن يهبىء الجو لتحرير
الرقيق واعادته انساناً سويًا له ما للأحرار من حقوق وعليه ما على الأحرار
من واجبات ؟

لقد سلك الاسلام لتحقيق هذه الغاية وبلوغ ذلك الهدف طريق التطور
الهادىء الفاعل لا طريق الطفرة الهادمة المنفرة ، فهو لا يستطيع أن يلغى
الرق لأول وهلة الغاء تاماً ، ولكنه يستطيع أن يرفع المستوى الاجتماعى للأمة
حتى اذا بلغت مرحلة من السمو النفسى ، انهار نظام الرق من تلقاء نفسه ،
وتصدعت اركانه وقضى تماماً عليه .

اذن فأول حرية نادى بها الاسلام هى حرية الانسان الشخصية ؛ لقد
أوصى بالرقيق خيراً وحرم استرقاق المؤمن ومنح الرقيق حق الحياة بعد أن
كان يحق للسيد أن يقتل عبده متى شاء ، وجعل عقوبة قاتل العبد القتل لان
المسلمين كما ورد فى الحديث الشريف (تكافأ دماؤهم) (ومن قتل عبداً
قتلناه) .

وشدد الاسلام على المساواة ، فقال عز وجل فى كتابه الكريم : (انما
المؤمنون اخوة) ؛ وأكد الرسول هذه المساواة فقال عليه الصلاة والسلام :
(الخلق كلهم عيال الله) (والناس سواسية كأسنان المشط) (ولا فضل
لعربى على عجمى الا بالتقوى) الى آخر ما هنالك من آيات وأحاديث غايتها
ان تركز فى الذهن الانسانى ان الناس من طينة واحدة ، وانهم جميعهم لآدم،

وان آدم من تراب ، وانهم لا يتفاضلون الا بالعمل وان الله لم يخلق عباده
فئتين : فئة من العبيد ؛ وفئة من الاحرار وانما خلقهم جميعهم أحراراً كما
أعلن ذلك عمر بن الخطاب بكلمته المشهورة يوم قال : (متى استعبدتم
الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟)

ثم منح الاسلام الرقيق الحصانة الجسدية فمنع ضرب العبد وتشويهه .
ومنحه الحصانة العائلية فمنع السيد من التفريق بين العبد وزوجته .

ولم يكتف الاسلام بذلك بل تعداه الى أبعد من هذا فقد كان النبي
عليه الصلاة والسلام يشتري العبيد ليعتقهم وكان يساعد العبيد المملوكين
لغيره على شراء أنفسهم وذلك ليضرب للمسلمين مثلاً حسناً يحتذونه ويقتدون
به وكان فوق ذلك يرغبهم بالعتق ويذكر لهم عظيم ثوابه ، فاذا مرض لاحدهم
مريض أو حل به بلاء أو تطير من أمر أمره بالعتق ، وكان يقول : (ايما
رجل اعتق امراً مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار) ، وكان
يقول أيضاً (ايما رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها
كان له أجران) .

ولم يقف الاسلام عند هذا الحد ؛ حد الترغيب في العتق ، وانما
استوجبه في حالات معينة فهو كفارة عن القتل الخطأ وعن الظهار واليمين
وأوجب في موارد الزكاة سهماً مخصوصاً يرصد لتحرير العبيد .

وحاول الاسلام فوق ذلك أن يقوى الروح المعنوية عند الارقاء فنهى
الرسول صلى الله عليه وسلم عن مخاطبتهم (بعبد وأمة) وأوصى بمعاملتهم
معاملة كريمة ثم قال (ان اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان
أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم
فان كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم) .

وقد اثرت وصايا الرسول وتعاليمه في أصحابه وفي جمهور المسلمين
فكثر العتق واستقامت معاملة الرقيق ورأينا عمر بن الخطاب ، وهو من هو ،

يتناول ركوب البعير هو وغلّامه حتى وصل بيت المقدس وكانت النوبة للغلام فدخلها خليفة المسلمين راجلاً ودخلها الغلام راكباً .

رأى مستشرق فى الرق :

لا نحسب ان نظاماً اجتماعياً سبق الاسلام أو جاء بعده الى أن الغنى الرق رسمياً استطاع ان يحمى الرقيق وان ينتزع له حقوقه كإنسان وأن يكفل له المساواة مع الأحرار الا الدين الاسلامى وانه ليروق لنا بهذه المناسبة أن نذكر هنا كلمة منصفة للمستشرق «سنوك» قال فيها (ان انتقال الأرقاء الى أيدي المسلمين يعد من نعم الله عليهم ، والأوروبيون الذين يتصورون الأرقاء فى الاسلام كأرقاء الزنوج فى أمريكا مخطئون جدا ، فأرقاء الاسلام يشبهون العمال الأورويين وأكثرهم يستردون حريتهم بعد زمن قصير من دخولهم فى ملك أسيادهم ، ولعل الجارية التى أصبحت زوجا لمسلم وأما لأولاده ، والرقيق المتوحش الذى تهذب وتعلم ، وظهرت إنسانيته فى حجر الاسلام أكبر حجة على عدل المسلمين) . ثم استورد المستشرق يقول : « ان الغاء الرق الذى أمر به الإنكليز عمل إنسانى لا شك فيه ولكنه لا يفيد أولئك الأفريقيين الذين يعيشون فى ادغالهم انكد عيش ويسامون اسوأ خطة ولو استرقهم المسلمون لنقلوهم من جحيم لا يطاق الى دنيا يعمرها النور وتسودها الفضيلة » .

التحرير لم يتم فعلا :

لقد مضى على ظهور الاسلام أكثر من ثلاثة عشر قرناً وأتيح للإنسانية خلال هذا الزمن الطويل أن تتطور وتندرج فى معارج الرقى والحضارة وقدر لها أن تحقق حلما من أحلامها بالغاء الرق وكان ذلك فى أواخر القرن التاسع عشر حين اجتمع فى برلين عام ١٨٨٥ عدد كبير من الدول وأبرموا معاهدة تعهدت فيها الدول الموقعة عليها بمنع تجارة الرقيق فى العالم

ولكن نظام الرق الذى ألقى رسمياً ؛ هذا النظام الجائر القذر ما زال مع الأسف قائماً . انه ما زال يعيش فى عصرنا هذا عصر الذرة بوجهيه المخزيين : الرق الجسدى والرق المعنوى ، وفى افريقيا السوداء ما زال الانسان يساع ويشرى ؛ وفى الأمم الضعيفة المستضعفة ما فتىء الانسان عبداً للقوى يستغله ويحرمه حقوق الحياة وينتزع من بين يديه ثروة بلاده وخيرات أرضه ، فاذا ثار من أجل حرته أو طالب بهذه الحرية سلط عليه القوى الغادر الحديد والنار وزبانية التخريب والدمار ، قصد اذلاله وخنق ارادته واستغلال جهده وعطاء بلاده .

حرية الفكر والعقيدة :

لم يكد الاسلام يطلق سراح الانسان ويحطم أغلاله التى أدمت يديه حتى انبرى يهبه حرياته كلها ويدافع ببسالة عن هذه الحريات كلما هددت . وثانى هذه الحريات التى كانت من عطاء الاسلام هى حرية الفكر والمعتقد . فالاسلام لا يرفض طرق التفكير الخاصة بل يدعو الى احتكاك الآراء وسعة الاطلاع وتنوع الثقافات ، وهو يعتبر الفكر ارثا انسانيا مشتركا بين الأمم وهذا ما جعل العرب يقتبسون دون ما تخرج من حضارات الأمم السالفة والمعاصرة وثقافتها المتنوعة ما يجدونه صالحا لبناء مجتمعهم الجديد وأكبر شاهد على حرية الفكر فى الاسلام تعدد المذاهب السياسية والفرق الدينية ومدارس الاجتهاد ؛ ومبدأ الشورى هذا المبدأ الذى أمر به القرآن الكريم « وأمرهم شورى بينهم » كان ركيزة قوية من ركائز الدولة الاسلامية ومظهراً من مظاهر ديموقراطيتها اذ كان للرأى الاصلح دائماً القدر المعلى والكلمة النافذة .

لا اكراه فى الدين :

أما حرية المعتقد فقد صانها الاسلام الا ما كان منها منافيا لكرامة الانسان وكرامة العقل ؛ ومن أجل ذلك حارب الوثنية حربا لا هوادة فيها ولا

لين حتى استطاع ان يهزمها ويقلص عن الجزيرة العربية ظلها لانها تعبير عن جهل الانسان والغاء لعقله . فاية قيمة لعقل يسجد أمام صنم لا يملك نفعا ولا ضراً؟ اية كرامة لانسان يعفّر جبينه على اقدم وثن جامد تبول عليه الثعالب ولا تخشاه؟ ومن أجل ذلك أتاح للنصرانية واليهودية أن تعيشا فى ظل دستور الخالد (لا اكراه فى الدين) هذا الشعار الذهبى الذى حمله محمد عليه السلام ودعا على أساسه اليهود والنصارى الى دينه فان قبلوه دخلوا فى الاسلام ، وان رفضوه لم يكرههم على شىء ؛ وانما سألهم أن يعطوا الجزية وهى ثمن حماية المسلمين لهم ودفاعهم عنهم فى الحروب . ولعل الرسول العربى الكريم خشى أن يشتت اتباعه فيما بعد وأن تسول لهم أنفسهم التضييق على معتقئ الأديان الأخرى فهى اتباعه عن إيذاء الذميين بقوله : (من آذى ذمياً فقد آذانى) .

وتتفرع عن حرية المعتقد حرية الممارسة للشعائر الدينية وقد كفل الاسلام هذه أيضا اذ أباح للنصارى أن يقيموا الكنائس ويظهروا الصلبان ويسيروا بها فى المواكب .

وليس أدل من بعد الاسلام عن روح التعصب واعطائه الحرية الكاملة لجميع أصحاب الأديان الأخرى - قول المستشرق - آدم ميتز : « وقد قلد ديوان جيش المسلمين لرجل نصرانى مرتين فى أثناء القرن الثالث » والمعلوم : أن القرن الثالث هو العصر الذهبى بالنسبة لانتصار الاسلام .

أفلا يعتبر تساهل المسلمين وافساح المجال لغيرهم كى يتمرس بأعباء الحكم والأدارة ألا يعتبر ذلك دليلا على أن الاسلام لم يصنف الناس على أساس معتقداتهم وانما على أساس كفاءاتهم .

لا هوادة مع المتآمرين :

غير أن موقف المسلمين يختلف بالنسبة لليهود لا لليهودية ، لأن اليهود ناوأوا الاسلام عند نشأته وتآمروا على الرسول و حاربه فى خبير وتكتلوا

ضد دعوته فكان من الطبيعي أن يقف المسلمون منهم موقفا معاديا ردا على موقفهم الذي تميز بجبك الدسائس والمحاولات الكثيرة للقضاء على الدعوة الجديدة وخنقها في مهدها .

ولعل من أبرز الأمثلة على تسامح الاسلام الدينى ذلك السلوك العملى الذى سلكه خلفاؤهم وخاصة الخليفة الثانى الذى دخل بيت المقدس وزار كنيسة القيامة ولما حان وقت الصلاة لم يجد مكانا يؤدى الفريضة فيه الا الفسحة الواقعة أمام مدخل الكنيسة ، وعندما قيل له ما معناه لم لا تصلى داخل الكنيسة والله تعالى يقول : « فأينما تولوا فثم وجه الله » أجاب : أنه كان باستطاعته أن يصلى داخل الكنيسة ولكنه خشى أن فعل أن يأتى يوم يطالب فيه المسلمون بالمكان الذى صلى فيه عمر .

هنات عابرة :

قد يقول قائل أن بعض العصور الاسلامية فرضت على غير المسلمين فى بعض البلاد قيودا تغل حرية المعتقد وتحد منها . وعلى هذا نجيب بأن الاسلام فى صفائه بعيد كل البعد عن جميع ما يمس الحرية العقائدية واذا كانت بعض الظروف العابرة ومقتضيات السياسة الرعناء قد أعطت فى بعض الأحيان الدليل الحى على ذلك فانه يجب أن لا يغرب عن البال ان الاسلام لا يعنى أبدا المسلمين وان بعض التصرفات الشخصية كانت وليدة أهواء ، الاسلام منها براء ، وانا لنذكر بكثير من الأسف أن الجهل والغرور أو الدس الأجنبى أو هذا كله مجتمعا أثار شيئا من الحقد والريبة فى فترات من الزمن مختلفة بين المسيحيين ، فما ينبغى لنا ونحن نلمح الى هذه الحقيقة الا أن نلتمس فيها الموعظة والعبرة فان التاريخ بما يعرض علينا من ذكريات الشرور والمآسى لجدير بأن يهذبنا كما تهذبنا المفاخر .

ولن ننسى أن نذكر فى هذه المناسبة بموقف ملوك فرنسا فى القرن السابع عشر من خصومهم الدينيين . أن مذابح (سانت بارتيلمى) بين

الكاثوليك والبروتستانت لم يعرف فى تاريخنا الطويل ما يشبهها هولا . ولقد ذكر الأستاذ « رينو » أن فرنسا عام ١٦٨٥ أصدرت أمرا بتحريم الديانة البروتستانتية وهدم كنائسها ونفى رؤسائها . وفى عام ١٧١٥ اعتبرت فرنسا فرنسا كل زواج لا يعقد على الطريقة الكاثوليكية زواجا غير شرعى .

فهل يعنى كل هذا أن تصرف الملوك والحكام يمكن أن يكون حجة على عدم تسامح المسيحية ؟ وهل يمكن أن نتهم الدين المسيحى على ضوء هذه الوقائع التاريخية ؟ ان المنطق السليم يجب بملء فيه كلا وألف مرة كلا .

حرية الرأى والقول :

(قل الحق ولو على نفسك) ذلك ما نادى به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ، وجاء أصحابه من بعده يطبقونه تطبيقا نموذجيا رائعا ، حتى أصبحت حرية الرأى والقول مفخرة من مفاخر الدين الاسلامى ومبدأ أساسيا من المبادئ التى تركز عليها الدولة الاسلامية الصحيحة ، فهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه يبايع خليفة للمسلمين بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، فيعتلى المنبر ويخطب الناس قائلا (لقد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنتم فأعينونى وان أسأت فقومونى ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم) .

ألا يعتبر هذا القول البليغ الرائع وهذا الأسلوب فى التشبيه والتشجيع على النقد مدرسة لحرية القول قل نظيرها فى التاريخ .

موقف عمرى :

وهذا ابن الخطاب يدعو الناس على طريقة سلفه الصديق الى معونته ان أحسن والى تقويمه ان اعوج فينهض أعرابى من بين الصفوف ويتصدى للخليفة قائلا : « والله لو رأيناك فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيفونا » فيشرح

لذلك صدر عمر ويشكر الله الذى أوجد فى رعيته من يستطيع تقويم
اعوجاجه اذا اعوج .

موقف آخر :

وهذا ابن الخطاب أيضا يرتقى المنبر ثانية ويخطب الناس قائلا : « أيها
الناس اسمعوا وأطيعوا ، فيقف اعرابى جلف ليقول للخليفة الذى ارتعدت
من رهبته فرائص كسرى وزلزلت من هيبتة تيجان القياصرة ، يقف ليقول له
بكل تحد وجرأة : لا سمعا ولا طاعة يا عمر ، ويتسمم الخليفة العظيم ، فان
وراء جرأة الاعرابى تهمة بلا ريب ، فليسط الاعرابى اللثام عنها وليقلها
بصراحة ، ويسأله عمر : ولم يا أخا العرب :

ويتهم الاعرابى خليفة المسلمين ، يتهمه باستغلال مركزه ونفوذه كخليفة .
فلقد وزع على المجاهدين ماغنموه فى احدى غزواتهم من حبرات يمانية أصاب
كل واحد منهم واحدة منها ، وقد حاول الاعرابى أن يجعل منها ثوبا له فلم
تكفه ، وها هو يرى الخليفة يرفل بثوب من تلك الحبرات والخليفة أطول منه
وأكثر بسطة فى الجسم .. اذن من اين لك هذا ؟ وترجم العيون الغضبية
الاعرابى الذى يتهم امير المؤمنين بشواظ من نار وتمد اللسنة اعناقها تشتتهى
ان تنهشه ، ولكن الخليفة العظيم يتسم ثانية ويسرى عنه ويلتفت الى
ابنه عبد الله قائلا : (أجبه يا عبد الله) . ويقف ابن الخليفة ليشرح للاعرابى
المتهم كيف تنازل عن حبرته لوالده وكيف صنع الوالد من الحبرتين معا ثوبا
له . ويقتنع الاعرابى ويبدد البرهان شكوكه فيحنى رأسه مدعنا ويقول :
الآن سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين .

موقف ثالث :

وهذا ابن الخطاب الثالثة يسأل سلمان : أملك انا أم خليفة ؟ فلا يهرب
سلمان أمير المؤمنين ولا يماريه ولا يصانعه بل ويقول له بصراحة ما بعدها

صراحة : (أن أنت جببت من أرض المسلمين درهما أو اقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه ، فانت ملك لا خليفة) .

النبي وحرية الرأي :

وهذا رسول الله يسير الى احدى غزواته فينزل بجيشه في موقع غير لائق من الناحية الاستراتيجية فيسأله عمر بما معناه : أبوحى نزل في هذا المكان أم باجتهاد ؟ فيجيبه الرسول عليه السلام انه انما اختار هذا المكان بناء على اجتهاد شخصي لا دخل فيه للوحى ، فيعترض الصحابي الجريء على هذا الاختيار وينصح بالعدول عنه ، فيمثل رسول الله ويبدل المكان .

وهكذا نرى ان حرية الرأي هي احدى الثمرات التي اتجهها الدين الجديد الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . واننا لا نعرف حركة عقائدية كانت او سياسية في التاريخ القديم او الحديث اعطت حرية الرأي مثل تلك المكانة التي أحلها فيها الاسلام . ولقد كان من نتيجة هذه الحرية ، ان تقدمت العلوم وازدهرت المدنية وسمقت فروع الدولة الاسلامية وامتدت ظلالتها ، وقدر للمواهب ان تتفتح في ظل هذه الدولة وان تعطى عطاءها السمع الخير .

الحرية المقيدة :

ولكن الاسلام لم يذهب بطبيعة الحال في موقفه من حرية الرأي مذهبا ايجابيا الى ابعد حدود الايجابية بحيث يبيح للرأى الطالح الفاسد المفسد ان ينتشر وان يتسلل الى افهام الناس واذهان العامة ، فذلك ما لا يتلاءم وفلسفة الحكم وبالتالي لا يتلاءم مع المصلحة العامة ، هذه المصلحة التي ترى بعض المذاهب الاجتماعية الحديثة ان يضحي في سبيلها بكثير من الآراء .

لقد كان الاسلام يدرك تمام الادراك ان المجتمع الاسلامى ككل مجتمع، لن يخلو من فئة مظللة لا هم لها الا تدمير كل بناء اجتماعى والكيد لكل حركة تصاعدية . فاعتبر هذه الفئة من اصحاب الفتنة وأكد ان الفتنة اشد من القتل ، ووجب على السلطة الحاكمة أن تتدخل حين يشيع الرأى الذى يوقظ الفتنة لتتلافى بذلك كل هزة اجتماعية محتملة . ولا نحسب منصفا حين يتصفح التاريخ الاسلامى واحداثه ومآثر افذاذه ، يجرؤ على اتهام الاسلام بمصادرة الرأى اذا ما وقف على بعض الحوادث التى تظهر لأول وهلة انها من قبيل الكبت بل وان شئت فقل القمع لهذه الحرية المقدسة .

حرية الآخرين :

ان الاسلام يعتبر ان حرية الفرد تنتهى حين تبدأ حرية الآخرين وهذه القاعدة التى تمشى عليها واتخذها مرتكزا للحريات العامة هى نفسها اليوم وفى ارقى المجتمعات الحديثة واشدها تعلقا بالحريات وتغنيا بها ، القاعدة التى تركز عليها الحريات . فهاتوا لى بالله عليكم بلدا فى عصر الذرة لا يمتن حرية من يعمل لتحطيم حريات الآخرين ؟ ولا يكبت رأيا يهدد المصالح العامة ويسئ الى هذه المصالح ؟ ان اميركا وهى زعيمة الدول الديموقراطية كما تزعم فى عصرنا الحديث ما زالت حتى اليوم تمتن معتنقى الشيوعية مثلا وتلاحقهم جزائيا وتنزل بهم العقوبات الجسدية من أجل آرائهم العقائدية مع أن مجموعة كبرى من الامم اعتنقت هذا المذهب الاجتماعى وطبقته فى بلادها . فهل يؤخذ على المجتمعات الاسلامية خلال تطورها التاريخى انها قمعت بعض الاراء المدمرة حقا فى سبيل السلامة العامة ؟ وهل يجوز ان نعتبر هذا القمع خرقا لحرية الرأى التى كفلها الاسلام ؟

حرية المرأة :

اما حرية المرأة فقد كفلها الاسلام حين ساواها بالرجل فى النفس والجاه والكرامة ، ورفع عنها تلكم الآصار ، وحررها من قيود الذل والاستكانة

والهوان . ونزل قول الله تعالى : يا ايها الذين امنوا لا يحل لکم ان ترثوا النساء کرها ولا تعضوهن لتذهبوا ببعض ما آتیتموهن الا ان یأتین بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فان کرهتموهن فعسى ان تکرهوا شیئا ویجعل الله فيه خیرا کثیرا) .

حقوق الاسلام للمرأة كافة حقوقها وكامل انسانيتها وحررها من كل قيد منذ أكثر من اربعة عشر قرنا . فبینما تتلو قول الله تعالى (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب) وبینما نردد حدیث رسول الله صلی الله علیه وسلم (سوا بین اولادکم فی العطیة ولو كنت مفضلا احدا لفضلت النساء علی الرجال) اقول بینما كنا نتلوا ونردد مثل هذه الاحادیث وتلكم الآیات نجد المرأة فی بريطانيا ، ارقى دول العالم ، قد بقيت حتى القرن التاسع عشر لا یؤذن لها ان تمشی فی شوارع لندن بغير حارس ولا یؤذن لها ان تنتقل الا فی عربة مقفلة ولا یؤذن لها ان تسافر الا برفقة رجل امین . بل لقد ظلت بريطانيا لمئة سنة خلت تبیح بیع الزوجات وانه فی سنة ۱۸۵۰ كان ثمن الزوجة نقدا ستة بنسات أى ما یساوی حین ذاك اربعة فرنكات .

كفل الاسلام للمرأة حرية التصرف ، وایباح لها ان تملك العقار والمنقول ، وان تهب وتشتري وتبیع ، وان توصی وتقاضی كما تريد ، علی حین ان الدول الكبرى صاحبات الدعوة الى حرية الشعوب لم تتوصل الى ما توصل اليه الاسلام فیما يتعلق بحقوق المرأة وانصافها الا فی مستهل القرن العشرين . اعطى الاسلام المرأة كل الحقوق التي اعطاها للرجل مدنية كانت أو سياسية ، فلها حق العمل بمزاولة كل مهنة شريفة تعجبها ولها حق الانتخاب والتمثيل النيابی البلدی والاداری وان تتولى مناصب القضاء .

وفی صدر الاسلام بايعة النساء محمدا علیه الصلاة والسلام وبايعة الخلفاء من بعده والبیعة ابلغ من الانتخاب . وفی عصر الايوبيين تبوات

« شجرة الدر » عرش مصر وكانت ام المقتدر رئيسة لمحكمة الاستئناف
ببغداد .

وعلى الجملة ليس من امة تحت السماء انصفت المرأة وناصرت المرأة
وحررت المرأة مثل الامة العربية ، وفي هذا يقول فون كريم (ان العرب
كانوا منطوريين على احترام النساء ومنهم تعلم الغربيون احترام نساءهم) .

حرية العمل :

ان من الحريات العامة التى كفلها الاسلام ايضا حرية العمل فهذه الحرية
مطلقة مبدئيا الا ما خالف منها الشريعة الاسلامية فان الاسلام يحظرها بوصفه
دينا سماويا ونظاما اجتماعيا وفكرة سياسة فى آن واحد ، وهو حين يحظرها
انما يخص بهذا الحظر المسلمين ولا يفرضه على غيرهم من رعايا الدولة .

فلغير المسلم ان يتاجر بالخمرة وان يصنعها ولكن ذلك لا يجوز للمسلم
لان دينه حرم الخمرة وحرم بيعها كنتيجة مباشرة لتحريم تعاطيها . ولغير
المسلم ان يقتنى الخنزير ويربىه ويبيعه ويشتره ، وان يتعاطى الميسر والربا
ولكن ذلك لا يجوز للمسلم لان قانونه الدينى حرمه بقوله سبحانه (انما
الخمير والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) وقوله
أيضا (وأحل الله البيع وحرم الربا) .

ومن الاعمال ما كرهه الاسلام باعتباره آلة المعصية اى انه يفضى اليها
كصنع الآت الملاحى واستئجار المغنيات وهذه الكراهة ليست تحريرية وانما
هى من قبيل الوقاية والحماية الاجتماعية .

ويجب ان لا ننسى نقطة هامة جدا ما دمنا فى صدر الحديث عن حرية
العمل فلقد كانت بعض الصناعات والحرف والاعمال مشينة فى نظر العرب
الجاهليين فجاء الاسلام يمجده العمل ويبارك العامل وقد روى عن الرسول

صلى عليه وسلم انه مر بشيخ تشققت يدا من العمل فاخذ يده فقبلها ثم قال
(هذه يد يحبها الله ورسوله) .

ولقد ضرب الرسول عليه السلام مثلا اعلى فى الدعوة الى العمل واحترام
الحرف حين قال : (الحرفة امان من الفقر) وحين طبق ذلك عمليا بأن كان
هو بنفسه يرتق ثوبه ويحلب شاته ويخصف نعله .

وكانت حرية الاقامة والانتقال مباحة ايضا عملا بمبدأ الحرية العامة
فللمواطن فى الدولة الاسلامية ان يقيم انى شاء وان ينتقل حيث ما شاء دونما
تقييد أو تضييق . وهذه الاباحة مطلقة لجميع المواطنين مسلمين كانوا أو غير
مسلمين وذلك فى زمن السلم ، ولكن الامر يختلف بعض الشيء فى زمن
الحرب وهذا امر طبيعى لا يمكن ان يعتبر مأخذا أو تقييدا للحرية .

اما التجمعات الطائفية ان صحت التسمية فلم يكن نظام الدولة يقتضيها
ولا الدين يتطلبها ، انما التشكل الاجتماعى وطبيعة المجتمعات هى التى اقتضتها
وتطلبتها اذ لم يكن المسلمون يفرضون على غيرهم من مواطنى الدولة
الاسلامية ان يقيموا فى بقعة معينة او ان يحشدوا فى ناحية معينة ، بل كانوا
يتركون لهم حرية الاقامة والتنقل يقيمون بصورة عفوية حيث تنتظم احوالهم
المعيشية ، ويتنقلون بصورة عفوية حيثما تقتضى ظروف حياتهم .

حرياتنا فى الميزان :

انه ليتمكن القول بأن الحريات العامة فى عصرنا وفى ظل النظم الحديثة
ليست أسعد حظا منها فى ظل الدولة الاسلامية رغم مرور أكثر من اربعة عشر
قرنا على نشوء تلك الدولة ، ورغم التطور الاجتماعى الذى طرأ على الانسان
الحديث وانظمة الحكم .

فما زلنا نرى كل يوم من مآسى الحرية فى عصر الاشعاع الذرى ما
يندى له جبين الانسانية . فهناك اقطار سلبت حرياتها وحرمت حق الحياة

حتى اذا ارادها الوعي ان تنتفض لتستعيد حرياتها المسلوبة وحقها المعتصب ، اغرقها الطغاه باسم الحرية دما وحديدا ونارا . وهناك فئات لم تمنحها ديموقراطية القرن العشرين سوى لون واحد من ألوان الحرية هو حرية الموت جوعا فتموت دون ان تثير اهتمام حاكم او عناية سلطة .

وهناك فئات ما زال يجنى عليها لونها ، انها ضحية للون عجيب من ألوان العبوديات ما فتىء يعيش في ظل المدينة الحاضرة هو عبودية اللون . اليس عارا على الانسانية ان يستعبد انسان من اجل لونه ؟ وأنى للانسانية صوت كهوت ابن الخطاب يرتفع مجلجلا (متى استبعدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا) ؟ ليحطم كل قيد وليكسر كل نير ؟ وأنى لحريةها ذلك الجو الرائع والمناخ الملائم الذى هبأه الاسلام ؟ ألا من يعيد الانسانية الى صوابها ؟ من يفتح عينيه على الاسلام ومحاسن الاسلام وديموقراطية الاسلام ، وعلى بذور الخير الكامنة فى تعاليمه ؟ هذه البذور التى تحتاج الى عقل بصير بكتشفها ويدخيرة تنشرها ؟ وأنى للحرية العامة نظام الهى يحميها كالاسلام ؟ « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب ، وهو يدعى الى الاسلام ؟

والله لا يهدى القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون . »

المجتمع المثالي

* يؤكد الاسلام بأن الناس سواسية ، ولا يتفاضلون
الا بالعمل الصالح والخلق القويم ، وهكذا نراه يظهر
الانسانية من غرور النسب وصفة اللون .

* ان الاسلام كفر من ينقض واحدا من الانبياء
الذين سبقوا محمدا ونزه تاريخهم عن الكذب ، وضرب
بعزمهم وصبرهم الامثال ، مؤكدا انهم كانوا مشاعل هداية
للعاملين .

* اسقط الاسلام الفروق الدينية في القضاء ، فلا
فرق بين مسلم وغير مسلم امام العدالة . وقد برهن النبي
والخلفاء الراشدون بأعمالهم على ذلك .

معرفة بين النظريات :

ما زال الانسان منذ بدأ يرقى سلم المدنية ، تأثما وراء أملة المنشود ،
وبغيته الضائعة ساعيا من أجل هدفه الاسمي ، ورسالته العليا ، الا وهي
« المجتمع الفاضل »

وفي سبيل هذه الغاية ، راح العقل الانساني يبتكر في كل يوم نظرية ،
ويرى في كل يوم رأيا ، ويحاول في كل مناسبة محاولة ، وينهج في كل ظرف
نهجا . وتشابكت النظريات والاراء ، وتباينت الحلول والمناهج ، واتخذ
بعضها الصفة السياسية ، وحمل بعضها راية العقل ، وتوسل بعضها الآخر

بالتجارب والعمليات التطبيقية، وهانحن في القرن العشرين نعيش على فوهة
بركان خامد ، لا نعرف مدى ثورته ؟ ولا ندري لحظة انفجاره . ها هي
الانسانية اليوم ، وقد تفرقت شيئا واحزابا ، ونظريات وأنظمة ، يحاول كل
منها ان يكسب التأييد ونيل الغلبة ، بتوفير اكبر قسط من العدالة ، ويسعى
كل منها من اجل اخضاع الاكثريية البشرية لمبادئه واسسه ، وكل نظام يحاول
ان يغرى أنصاره بزعمه حماية العدالة ، وحرصه على الحرية ، وحرصته للقيم
النسائية . وكل نظام يحاول ان يظهر للملا بمظهر البطولة والترفع والاخلاص
للانسان ، وسعادة الانسان وأمنه وسلامه .

ولكن .. ما هي حصيلة هذه المعركة بين النظريات ، وما هي نتيجة هذا
التسابق بين المبادئ في كسب ود البشرية واكتساب رضائها!؟..

السعادة ضالة البشر :

مما لا شك فيه أن اختلاف الانسان في تطبيق مفهوم العدالة ، وتباين
آرائه حول مبادئها ، جعل العدالة نفسها في خطر .. وهذا الاستنتاج امر
بدهى تماما . لان الغاية من تطبيق العدالة هي الوصول « الى السعادة »
والحصول على الامن ، والتمتع بالراحة والرخاء .. للاحياء جميعا .. وهذه
الغاية لن توصلنا اليها الحروب ولن تضعها بين ايدينا الدماء التي تريقها
الشعوب .

وسبيل الانسانية الى السعادة والسلام ، سبيل لا يمكن سلوكه
بالطائرات ولا يمكن تمهيده بالقنابل والطريق الى الأمن الانساني العام لسنا
فيه بحاجة الى الأحلاف التي لحمتها المصالح الرخيصة ، وسداها التجارة
بمصائر الناس .

اجل ان السعادة ليست مطلبا عسيرا ، يستحيل على الانسان امتلاكه أو
الحصول عليه ، وليست هدفا خياليا يحلم به المصلحون الاجتماعيون ،

وليس معنى هذا أن الحروب التي استعرت فارها بالأمس بين النازية والرأسمالية والتي يدور خطرهما اليوم بين الشيوعية والرأس مالية ليست هذه الحروب دليلا على أن الأمن بين الانسان وأخيه ، والسعادة بين البشر ، أخبار علمية تدور في الرعوس وتذكرها الألسن ... ولكنها لا توجد .

لا .. فما اشد خطأ من يدعى ذلك لان حالة التوتر القائمة دائما وابدا بين النظريات الانسانية التي تزعم انها تعمل من اجل اسعاد البشر واثاعة السلام بينهم .. حالة التوتر هذه دليل صريح لا ينقبض على ان النظريات الانسانية كلها نظريات فاشلة .

ودليل على ان العاملين من اجلها انانيون مخطئون ، وان الانسان في كافة مراحلها لا يستغنى عن السماء ووحى السماء . وان رسالة الاديان لم تفقد جوهرها الروحي بعد ، ولم تتنازل عن رفعة مقاصدها ، وترفع اهدافها ، وان الناس مهما اوتوا من العلم ، ومهما حازوا من درجات التقدم ومهما نالوا من اطوار الازدهار .. فانهم دائما وابدا عباد الله ، بحاجة لشرع الله . ذلك الشرع الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى لا شفاء للانسان الا به ، ولا سعادة الا باتباعه ...

والله تعالى اعلم منا بانفسنا ، واحرص على سعادتنا منا ، ونظامه للعدالة نظام الهى ليس فيه طمع ولا جشع ، ولا كبرياء ، ولا تسلط ، وهو الغاية التي ما بعدها غاية .. والامل الذى ليس من بعده أمل .

عمل الاسلام من أجل العدالة :

الاسلام كدين سماوى ، وشرع الهى ، ضرب بسهم وافر فى تنظيم العدالة ، وارساء قواعدها بين الناس ، ونال حظا عظيما فى رسم القواعد الاولى لاسعادهم ، وتوفير الامن والطمأنينة لهم ، وفتح فتوحا جديدة فى محاربة الآفات التي كانت تأكل كل جهود المصلحين الاجتماعية كما تأكل النار الحطب ..

فماذا فعل الاسلام ؟ وكيف حقق العدالة فى بناء المجتمع ؟

معنى العدالة فى رمضان :

هذا ما سنحاول كشف النقاب عنه ، للمسلمين خاصة وللمواطنين عامة ، وأول مثل له شهر رمضان المبارك الميمون ، الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان . ذلك بان رمضان وحده بما يتخلله ويحف به من المعانى الانسانية الرفيعة ، هو صورة رائعة من سمو العدالة الاسلامية بل هو من اقوى ضروب الرياضة ، التى يقود الاسلام بها أزمة النفوس ، الى تحقيق حياة اجتماعية مثلى ، تقدم على اكرم مبادئ العدل والمساواة .

فاذا جاع الفقير وشبع الغنى فى كل أيام السنة ، وأدى ذلك الى شعور الاول بمرارة الظلم ، وزهو الثانى ببطر النعمة ، — جاء رمضان فنشر لواء الجوع على الغنى والفقير ، بدرجة واحدة ، فأحدث للعدالة طعنا جديرا بأن يشد النفوس اليها ، ويديم ارتباطهم بها ، لأن فى المساواة امام الجوع تعزية لنفس الفقير بأن الغنى قد اصبح نظيرا له ، وترية لنفس الغنى بان الفقير نده وقرينه .

وكذلك يجمل وجه العدالة الاسلامية حين يرسل المؤذن صيحته الخالدة مع غروب الشمس ، فتحمل الاذن بالطعام للفقير والغنى على السواء ، فاذا المساواة ظابع رمضان ، يشعر المسلمين بها فى الحرمان فيمضى اليوم والناس جميعا ممسكون ، ويروضهم على الاعتصام بها فى العطاء ، فلا تغرب الشمس الا والجميع مفطرون .

ولا مرأ فى ان الاسلام يهدف بفريضة الصيام الى تأصيل فضيلة العدل ، سواء بهذه الوحدة بين كافة الطبقات فى مظاهر الحياة ، أو بما يشير فى نفوس ذوى اليسار من الشعور بالآلام المعسرّين ومد اليد اليهم ، بالمشاركة فى مال الله الذى آتاهم اياه .

لقد ضاعف الله اجر الصدقات فى رمضان ،

وتسابق الصحابة الكرام الى البذل والعطاء فى رمضان ،

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جوده كالريح المرسلة ، وكان أجدود ما يكون فى رمضان . ثم فى نهاية الشهر تجب زكاة الفطر فلا يقبل الصيام الا بادائها تماما لحق رمضان . فاین تذهب حصيلة هذه التوجيهات كلها ؟ وهى كثيرة لا يحيط بها الاحصاء ، وای اثر تحدثه هذه العطايا جميعا فى مجتمع يتفاوت اهله فى الغنى واليسار ؟

الاترون - قرائى الاعزاء - ان مجتمعا تنحدر فيه هذه الاموال من قم الثروات الى سفوح الاقلال جدير بان يجد فيها خير اداة لاحداث التوازن ، وتقريب مسافة الفرق بين كافة الطبقات ؟

ثم الا توافقون معنى على ان رمضان بهذا الاعتبار حرى ان يعتبر معرضا سنويا لفضائل الاسلام ، وفى مقدمتها فضيلة العدل والمساواة بين عامة الناس ؟

دعائم المجتمع المثالى :

يقوم المجتمع فى نظر الاسلام على دعائم عدة من خلق وحكم ووحدة وأمل وتكافل ، ولكل منها اثره الكبير فى تسديد خطى الجماعة الانسانية نحو الرقى والكمال .

وما من شك ان العدالة والمساواة دعامتان اساسيتان وضروريتان لبناء مجتمع صالح ، وتأمين استقراره وطمأنينته .

والاسلام حين يحدد دورهما فى بناء المجتمع ، ويشدد عليهما كعاملين يضمنان كيانه ويثبتان قواعده ، انما يسيرهما فى اتجاهين مختلفين : سلب وايجاب ، ويعهد اليهما بعمليتين : هدم وبناء ، وذلك لان توجيهات الاسلام الانشائية بمثابة بذور النبات الزكى لا بد لكفالة نموه من تطهير التربة من

الطفيليات ، ضمانا لطهارة الفطرة الترابية ، التى تحضن الغرس الطيب ، وتنميه ، ليعطى ثمره الحلو اليانع .

تطهر داخلى :

من أجل ذلك ، يعتمد العدل الاسلامى ، الى شق طريقه ، بتطهير وعاء النفس الانسانية من كل ما يشعرها بالصلف حيننا ، وبالصغار حيننا آخر ، حتى يردها الى أصالة طهرها . فلا يغريها الاقبال ، بالجشع والكبرياء ، ولا يشدها الحرمان والعوز الى استمرار الضعة والهوان . وكلما بلغ الغاية من هذا التطهير فى جانب ، أسرع الى ايداعه عناصر العدل الايجابية ، فمهّد بذلك لقيام بناء المجتمع الراشد على ارض خلت تربتها من الطفيليات وبذور الطفيليات .

ولعل أول ما يستهل به العدل الاسلامى عمله ، فى بناء المجتمع الصالح ، هو انه يقيم الموازين القسط بين ابناء آدم جميعا ، ويعلن ان النفس الانسانية من اصل واحد :

« يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء »

فيحرر المجتمع بذلك من الاحتكام الخاطيء الى المعايير المصطنعة ، فى النظر الى فئات الخلق ، والحكم على اقدار الناس .

قلنا ان الاسلام يشدد الحملة على بذور الكبرياء والضعة - وهو الجانب السلبي من عملية البناء - ليهيئ النفس الانسانية لمنهج الاعتدال الكريم ، الذى لا يبطره زيف الدنيا وبهرجها ، ولا تحنى هامته حوادث الايام : قال تعالى فى كتابه العزيز :

« اليس فى جهنم مثوى للمتكبرين » وفى موضع آخر : « قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر بحسب امرىء من الشر ان يحقر اخاه » .

فهل يسع امرء يؤمن بالله وباليوم الآخر ، ان يسد اذنيه ، فلا يصغى الى هذه النذر ، وان يسمح لها فتزين له الزهو على الخلق او تستدرجه الى ادعاء التمييز على سائر الناس ؟

بل ألا ترون - قرائى الاعزاء - ان من شأن هذه النذر ان تحدث رد فعل طبيعى فتكاد تهبط بالنفس الانسانية مباشرة من التعالى والاستكبار ، الى القناعة بالدون والصغار ، لولا ان فى هذا العلاج اسباب المناعة من الاتكاس حين يقول تعالى :

« والله العزة لرسوله وللمؤمنين » وفى قوله ايضا : « أيتغون عندهم العزة : فان العزة لله جميعا » .

وحين يقول رسوله عليه السلام : « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف واليد العليا خير من اليد السفلى » وتبلغ الحصانة أوجها بهذا الحديث الشريف « من اعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فليس منى » .

أسس البناء الثلاثة :

بمثل هذه الحملات العنيفة على نوازع التمييز بين الانسان ، يقتلغ الاسلام من النفس الانسانية الطفيليات ، ويهيأها لتقبل بذور التوجيه الايجابى البناء ، الذى يمكن ان نجملها فى ثلاث نقاط :

أولها : وحدة المنشأ :

لقد قرر الاسلام ان الناس جميعا متساوون فى قيمة الفطرة التى نشأوا منها والتى مردهم اليها ، وهى الفطرة الترابية التى لا تسمح لعاقل ان يتخذها مادة للشموخ بانفه ، او العلو بقدره ، « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة اخرى » .

« والناس لآدم ، وآدم من تراب »

وثانيها : وحدة القيمة :

فالاسلام حين يضع الأصل البشرى بصورة ينتفى معها الغرور ، وفي وضع لا يمكن معه اتخاذ مادة للزهو والخيلاء والاستعلاء ، يقرر كذلك الا تفاضل بين الناس بهذا الاصل بل التفاضل بينهم يقوم على اساس آخر .

ان الناس كما أكد الاسلام سواسية كاسنان المشط ولكنهم يتفاضلون بالعمل الصالح والخلق القويم : « لا فضل لعربي على اعجمي .. الا بالتقوى »
« والخلق كلهم عيال الله واحبهم اليه انفعهم لعياله » . « ومن اطاعنى دخل الجنة ولو كان عبدا حبشيا ، ومن عصانى دخل النار ولو كان شريفا قرشيا » .

ألم يعتمد الاسلام فى تعاليمه هذه الى توجيه النفس الانسانية نحو الخير ، وانتزاع ما يشوبها من غرور النسب وضعة اللون ؟ ليحقق المساواة فى القيمة بين الناس جميعا عند نقطة انطلاقهم فى خدمة مجتمعهم ، ثم لا يعترف بشيء من التمايز فيما بينهم الا بنسبة ما يقدم احدهم لمجتمعه وبنى دينه ووطنه .

وحدة المصير :

اما النقطة الثالثة التى أراد الاسلام ان يهبىء بها النفس الانسانية لتقبل فكرة العدل والمساواة فهى وحدة المصير :

ان الناس حين يشعرون بانهم صائرون الى نهاية واحدة . ومنهون مهما طال بقاؤهم على الارض الى مصير واحد ، ينزعون الى حب العدل والمساواة والى التخلق بكل ما هو كريم وتسامح .

واى شيء يعرئ الانسان بالتطاول على الخلق ، ونذير الموت يقرع سمعه : « كل شيء هالك الا وجهه .. له الحكم واليه ترجعون » .

وكيف يتناول المرء على أخيه ، وهو يشعر ان الموت مصير كل حي ،
وان حفرة القبر الموحشة مشوى لكل انسان ، وان القوى والضعيف ، والمغرور
والمسكين ، والظالم والمظلوم ، كلهم فى القريب على مائدة البلى ، بل فى
ضيافة الدود والتراب ؟

أمام كل ذلك . تنهزم عوامل الاستعلاء والاستخذاء جميعا فى نفس.
الانسان ويقوى فيها الميل الى القصد والتزام الصراط المستقيم .
«وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ،
ليقضى أجل مسمى ثم اليه مرجعكم ، ثم يبينكم بما كنتم تعملون » .

المساواة المطلقة :

وينطلق الاسلام بعد ذلك ، لينث روح المساواة والعدالة فى مظاهر
ثلاثة من مظاهر الحياة العامة .

فى العقائد ، وفى العبادات ، وفى المعاملات ،

فالاسلام ، يدعو الى احترام الاديان السماوية عامة ،

« قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل
واسحاق ويعقوب والاسباط ، وما اوتى موسى وعيسى وما اوتى النبيون من
ربهم لا نفرق بين احد منهم » .

ثم ينهى عن مضايقة غير المسلم فى عقيدته وعبادته وماله ،

ويعلن حرية المعتقد : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ،

ويؤكد اخوة الاديان جميعها ، فيقول تعالى : « آمن الرسول بما أنزل
اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » . . ويعلن انها
من مصدر واحد : « انا أوحينا اليك ، كما اوحينا الى نوح والنبيين من
بعده » .

أما فى العبادات ، فقد حرص الاسلام على ان يساوى بين معابد الاديان جميعا فى الحرمة الواجبة لها ، والقاضية بصيانتها وعدم المساس بها .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . »

ولم يكتف باقرار المبدأ بل انه نهى عن التعرض للرهبان فى صوامعهم ، وطبق الخلفاء الاولون هذه التعاليم تطبيقاً رائعاً ، اذ ان القراء يذكرون ما جاء فى وصية ابي بكر الصديق ، رضى الله عنه ، لقواده وكيف نهاهم عن التعرض للصوامع ، ونساكها :

« وستجدون اقواما ترهبوا فى صوامعهم فدعوهم وما فرغوا انفسهم لله . »

صورة فذة من تطبيق مبدأ المساواة :

ولم يقف احترام الاسلام للعبادات عند هذا الحد ، بل ان السلوك الاسلامى حظر استخدام معابد الذميين لصلاة المسلمين حتى لا يدعى المسلمين حقاً عليها مع مرور الزمن . والتاريخ ما زال يذكر باكبار ، يوم دخل الخليفة العادل عمر بن الخطاب بيت المقدس ، وحان وقت الصلاة وهو يزور كنيسة القيامة ، وأراد ان يؤدى الفريضة ، فسارع الى الخروج من الكنيسة ، ليصلى عند عتبتها ، ويسأل الخليفة عن سر هذا التصرف رغم ان الاسلام يعتبر المعابد جميعا من بيوت الله ، ورغم ان التعاليم الاسلامية تبيح للمسلم ان يصلى أنى شاء ، فيجيب الخليفة العظيم بانه لم يفعل ذلك الا لانه لا يريد ان يأتى يوم يستولى فيه المسلمون على الكنيسة بحجة ان ابن الخطاب صلى فيها !

أما فى المعاملات فان الاسلام وقف من الذميين والمعاهدين موقفا نبيلاً ، لا تلحقه فيه احدث النظم العصرية التى تتشدد بالحرية والمساواة .

فلقد حث على احترامهم وكرامهم واحسان معاملتهم ، واستهدف
حمايتهم وحماية اموالهم ، واتخذ دين الذمى اساسا لرعاية ماله ، ولو كان
هذا المال من المحرمات فى نظر الاسلام ذاته .

والدليل على ذلك انه مع تحريمه الخمر والخنزير ، وتحذيره المسلم من
الخمر او صنعها او بيعها ، ومع انه حرم عليه اكل لحم الخنزير او تربيته ، او
الاتجار به لان الخمر والخنزير فى نظر الاسلام مال غير منقوم مع كل ذلك
فقد اوجب الاسلام حماية هذا المال غير المنقوم اذا تعلق الامر بدمى .

فلو اتلف احد المسلمين خمرا او خنزيرا لمسلم فلا عقاب عليه ولا تعويض
لان الخمر والخنزير كما قدمنا مال غير منقوم بالنسبة للمسلم ، اما اذا اتلف
مسلم خمر ذمى او خنزيرا يملكه ، فان الاسلام يفرض عليه العقاب والتعويض
لانه فى دين الذمى مال منقوم يجوز التعامل فيه عند اهل الكتاب .

واوجب الاسلام على دولته ان تحسن صحبة الكتابيين من الطوائف
التى لا تدين بالاسلام فقال تعالى فى كتابه الكريم :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من
دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم » وما اكثر الشواهد فى التاريخ الاسلامى
على نبل المعاملة التى يلقاها الذميون من المسلمين ، وكيف كانوا يعملون على
توفير الطمأنينة لهم من حيث الحماية المالية والحرية العقائدية .

رب قائل يقول : ان فى الاسلام نزعة استعلاء على بقية الاديان ، وميلا
الى الظهور عليها بدليل انه استهدف جمع الناس على رسالته ، وانه اورد فى
مواضع كثيرة من القرآن ، ما يفيد بان الله فضله واطهره على الاديان جميعا
مثل قوله تعالى :

« ليظهره على الدين كله » وقوله : « هو الذى ارسل رسوله بالهدى
ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون »

نظرة الاسلام الى الاديان :

ولرفع الشبهة التي تسبق الى بعض الازهان من هذه الآيات الكريمة
نقول :

ان الاسلام نادى بوحدة الاديان السماوية جميعا ، فهي في نظره
متحدة المنابع ، موحدة المصدر ، وقد اعطينا الدليل ، فيما مر ، على ذلك .
ولكن الاسلام ، من ناحية ثانية ، يعتبر الأديان التي سبقت مراحل
هداية ، وهو اذ يعتبرها كذلك لا يقل من شأنها واهميتها ، وضرورة
احترامها ، بل انه يصر على وجوب احترامها واعتبارها اياها شيئا واحدا .
وانما كانت الأديان التي سبقت الاسلام متوافقة مع حاجات البشرية في
عصورها السالفة حتى اذا تم نضج البشرية وتبلورت حاجاتها جاء الاسلام
اكثر شمولا وأوفى بمطالب الانسانية التي طرأت عليها بعد رسالات الأنبياء
السابقين صلوات الله عليهم اجمعين .

وليس أدل على حقيقة نظرة الاسلام للاديان الأخرى من مدحه
للموسوية الصحيحة بقوله : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل
بما صبروا » .

ومدحه للمسيحية الربانية بقوله « اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك
ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين
كفروا الى يوم القيامة » .

ولا نعتقد ان كتابا دافع عن عصمة مريم كما دافع القرآن الكريم ، واننا
لنحبل من يشك في هذا القول على سورة مريم ، ليرى كيف نظر الاسلام
الى المسيحية نظرة تنزيه وتقديس .

الاسلام والانباء :

اما بالنسبة للانباء الآخرين الذين سبقوا محمدا صلى الله عليه وسلم،

فوالدين الاسلامى كرمهم اعظم تكريم ، فكفر من ينقض واحدا منهم مهما
احب محمدا ، ونزه تاريخهم عن الكذب وضرب بعزمهم وصبرهم الأمثال ،
وأكد انهم كانوا مراحل هداية للعالمين :

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب . . . اكان حديثا يفترى ،
ولكن تصديق الذين بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم
يؤمنون » .

يستنتج مما تقدم ان جمع الناس على الاسلام هو جمع على هدى
السماء ، متضمنة روح الأديان السابقة ، وان ظهوره على الدين كله هو ،
ظهور الكتب السماوية جميعا بظهور مرحلة الختام على مراحل البداية ،
والدليل على ذلك ان القرآن حين يؤكد ظهور الاسلام يقول . ولو كره
الكافرون . ولو كره المشركون . ولم يقل ولو كره اليهود أو المسيحيون .

قواعد العدالة الاجتماعية :

لقد عمل الاسلام من اجل عدالة اجتماعية ، ترسيخا لفكرة العدالة
كمبدأ ، وتنمية لها كسلوك ، لذلك سعى الاسلام الى تحقيق العدالة
الاجتماعية بوسائل شتى أهمها :

١ - اعلان الاخوة بين ابناء المجتمع الاسلامى :

(ا) « انما المؤمنون اخوة ، فاصلحوا بين اخويكم . »

(ب) لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

٢ - تشديد النكير على كل عمل يوهن الأخوة الاسلامية :

ومن اجل ذلك حرم التعالي والسخرية بقوله تعالى : (يا أيها الذين
آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء
عسى ان يكن خيرا منهن) .

وحرم التعريض بالعيوب والتفاخر بالاحساب « ولا تلمزوا انفسكم
ولا تنازروا بالألقاب » .

وحرم الغيبة والنميمة وسوء الظن : « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا
من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، يجب
احدكم أن يأكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه » .

٣ - الترغيب فى كل ما يجمع القلوب ويدعم الوحدة :

كالدعوة الى الاصلاح بقوله صلى الله عليه وسلم : « الا ادلكم على
افضل من درجة الصلاة والصوم ؟ اصلاح ذات البين » .

وكحسن الجوار بقوله : « اتدرى ما حق الجار عليك ؟ اذا استعانك
اعنته ، واذا استقرضك اقرضته ، واذا افتقر عدت عليه ، واذا مرض عدته ،
واذا اصابته سراء هنأته ، وان اصابته مصيبة عزيتته ، واذا مات اتبعته
جنازته ، ولا تستطيل عليه بالبيان فتحجب الريح عنه الا باذنه ، ولا تؤذ
بقنار ريح قدرك الا ان تعرف له منها ، واذا اشترت فاكهة فأهد له ، والا
فادخلها الى بيتك سرا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده » .

كما اغرى الاسلام بالمساعدات والخدمات الاجتماعية ، فاعتبر مساعدة
الضعيف صدقة ، وازاحة الاذى عن الطريق صدقة ، وحث على التعاون ابتغاء
خير الجماعة فقال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى » وقال عليه السلام
« من ادخل السرور على اهل بيت من المسلمين لم ير الله له جزاء دون الجنة »
كما قال : لأن يمشى احدكم فى حاجة اخيه خير له من ان يعتكف فى
مسجدي هذا شهرا » .

٤ - اعلان الاخوة الانسانية ، واسقاط التفاضل بالانساب والمظاهر :
« يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر واثى » ، بهذه الصيغة الشائرة
واجه الاسلام الاحساب والانساب والتفاضل القبلى ، ثم راح صاحب

الرسالة العظيمة يطبق ذلك تطبيقاً عملياً ، فيكتب بين المسلمين واليهود صحيفة المودعة يساوى فيها ، بين الفريقين فى الحقوق الواجبات ويأتى قادة الفتح الاسلامى ليتربسوا هذا الطريق ، فيفعل مثل ذلك المثنى وسعد مع النصارى الذين حاربوا معه فى البويب وفتح بهم فارس والمدائن .

لغات نبوية حول الاخوة الانسانية :

ويوصى الرسول العظيم اهله فيقول : « التمسوا لكم عملاً ينجيكم من الله ، فو الله لا اغنى عنكم من الله شيئاً » .

ويمر به ، وهو فى جماعة من اصحابه ، رجل حسن الهيئة فيقول لهم : ما تقولون فى هذا ؟ فيقولون : هذا والله حرى اذا قال ان يسمع لقوله ، واذا خطب ان ينكح فيصمت الرسول العظيم . فيمر بهم رجل آخر تبدو عليه مظاهر الاقلال فيسألهم : ما تقولون فى هذا ؟ فيقولون يا رسول الله . والله انه لحرى اذا تكلم الا يسمع له واذا خطب الا ينكح . فيقول محمد عليه السلام كأنه يعطى الانسانية كلها درساً فى ان الخلق العظيم ميزان الأفضلية ولو كان صاحبه مثال الفقر والفاقة ، يقول عليه السلام : « لهذا خير من ملء الأرض من هذا » .

العدل أساس الملك :

ولقد رأى الاسلام ان العدالة لا قيمة لها اذا لم يكن هناك قضاء عادل بين الناس ، فجاء التاريخ يشهد بان المسلمين وفروا للناس عدالة قضائية جعلتهم طبيعة الأمم العادلة على الأرض .

يوصى القرآن الكريم بالعدل ، ويشدد على ذلك بقوله : « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . « واذا قتلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

فيقيم المسلمون أسس مملكتهم ، وقواعد حكمهم على العدل ، على هذه الركيزة الأمانة الراسخة ، التي لا يمكن أن يتزلزل حكم اذا كانت هي قاعدته ، وبفضل التوجيه الحمدي ، يتغلغل حب العدل ، في نفوس اتباع الاسلام ، فيصبح شيئا من دمهم وأعصابهم .

نهذا عمر بن الخطاب يوصي أبا موسى الأشعري حين بعثه قاضيا على الكوفة بوصية لا تزال حتى يومنا هذا مصدرا من مصادر التشريع ، في اصول المحاكمات ومثلا يحتذى في تلقين آداب القضاء ، يقول عمر رضی الله عنه وهو يوصي ابا موسى :
:

أما بعد ، فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلى اليك وأنفذ اذا تبين لك . فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس بين الناس في مجلسك ووجهك وعدلك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا حرم حلالا أو أحل حراما ، ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم ثم راجعت فيه نفسك أن ترجع الى الحق فان الحق قديم ، والرجوع الى الحق خير من التماذى فى الباطل .

الى أن يقول : اياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتشكر للخصوم فى مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن الذخر .. الى آخر تلك الوصية التي ما زال طلاب الحقوق يتدارسونها فى الجامعات حتى اليوم .

وهذا هو ايضا يطلق فى سمع الدنيا صرخته التي ما تزال تدوى ، متى استعبدتهم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ، يصفع بها كل من يحاول أن يستغل نفوذه للاحاق الأذى بالناس ، أو انزال الحيف والظلم بهم . وهى تذكرنا دائما كيف ضرب الفاروق العظيم ابن الأكرمين ولد الحاكم عمرو ابن العاص اقتصاصا منه ، لأنه تناول على أحد رعايا المسلمين .

وهذا هو أيضا ، يقيم حد الزنى على ولده ، فيستغيث به ولده ، ويقول :
ناشدتكم الله يا أمير المؤمنين ، الا مزقتنى اربا اربا ، ولا تفضحنى بين
المسلمين ، فيقول له الخليفة العادل جاعلا العدالة فوق عاطفة البنوة :

يا بنى وماذا اصنع بقوله تعالى : «وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين»

الناس أمام العدل سواء :

ولو اردت - قارئى العزيز - أن اتقصى اخبار العدالة القضائية فى
الاسلام عبر التاريخ لأعوزتنى المجلدات ، ولكننى قبل ان انتقل الى
الناحية الاقتصادية أود ان اشير الى أن الاسلام أسقط الفروق الدينية فى
القضاء ، فالمتقاضون أمام عدالته سواء لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، وكلنا
يذكر كيف نهى الرسول عليه السلام عمر عن البطش باليهودى الذى اغلظ
فى طلب حقه من الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف انكر على كرم الله
وجهه من أبى بكر رضى الله عنه أنه ميزه عن خصمه اليهودى بالكنية ، مما
يشير الشبهة فى نفس المتقاضى .

كما ان الاسلام اسقط الاعتزاز بالعاطفة والقرابة ، وقد سبق ، وذكرنا
فى موضع آخر موقف الخليفة الراشد عمر بن الخطاب من ابنه واقامته
الحد عليه . وتأكيذا لهذا المبدأ ، نود ان نشير اشارة عابرة لجديته عليه
الصلاة والسلام الذى قال فيه :

- لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

العدل الاقتصادى توأم العدل الاجتماعى :

ان كل عدل لا يقوم على اقتصاد منظم .. فهو عدل ناقص بل عدل
ظالم ان صح التعبير ، فلن نكون عمليين حين نقول للجائع أو العارى أو
المفلس أو العاطل عن العمل ، لا ترتكب الجريمة قبل أن نحقق له مجتمعا
صالحا لا يجوع فيه ولا يعرى ولا يتعطل عن العمل .

ولا شك ان المجتمع الذى يطبق القانون بحرفيته على من لا يؤمن لهم مثل هذه الضمانات مجتمع فاسد ظالم مهدد بالانهيار .

فالمر ، كيف نظر الاسلام الى العدالة من زاويتها الاقتصادية :

لقد امر الاسلام بتأمين العمل لكل قادر عليه . ونظر الى كل نوع من العمل مهما كان ، نظرة احترام وتكريم . وقصة الرسول مع ذلك العامل الذى اتفتحت يده من العمل معروفة فلقد حيا رسول الله هذه اليد العاملة قائلاً : هذه يد يحبها الله ورسوله ، والأحاديث الرامية الى تمجيد العمل ، وتفضيله احيانا على العبادة واعتباره نوعا من العبادة ، كثيرة جدا لا مجال الآن لسردها وتفصيلها .

ولكن يجب أن نلاحظ أن الاسلام ساوى فى الكرامة الانسانية بين الخادم والمخدوم ، والمالك والأجير . وهذا ما لم تعرفه الانسانية فى غير تاريخ الاسلام .

ولم يكتف الرسول بالناحية النظرية ، بل طبق ذلك على نفسه عمليا فكان يعمل فى مهنة اهله ، ويأكل مع خادمه ، ويطن عنه . وذهب الى ابعد من ذلك ، فأمر بأن يدفع صاحب المال للعامل أجرا اضافيا عن العمل الاضافى، وهذا خير ما توصلت اليه اليوم أحدث النظريات الاجتماعية .

عمر يحقق الضمان الاجتماعى

ولا شك أن بذور الضمان الاجتماعى على انواعه متوفرة فى الاسلام . فلقد كفل هذا النظام ما نسيه نحن اليوم المخاطر الجسمانية والمهنية والعيلية :

قدمت جماعة من التجار الى المدينة فنزلوا المصلى فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : هل لك أن تحرسهم من السرقة ؟ فوافق عبد الرحمن ؟ وباتا يحرسان القوم . وسمع بكاء صبي بينهم فتوجه الى أمه قائلاً : اتقى

الله واحسنى الى صبيك . ثم عاد الى مكانه ولكن الصبي عاد البكاء
فعاد عمر اليها يقرعها ، غير انه فى المرة الثالثة قال لها :

ويحك انى اراك أم سوء مالى ارى ابنك لا يقر منذ الليلة :

فقال له : يا عبد الله لقد أبرمتنى الليلة . انى أربعه على الفطام .

قال : ولم ؟ قالت : لأن عمر لم يفرض للرضيع فعجلت فى فطامه لآخذ
له نصيب الفطيم واستعين به على فقري .

فانصرف عمر الى بيته وصلى الفجر فلما سلم ، قال : يا بؤسا لعمر !
كم قتل من أولاد المسلمين . ثم أمر مناديا فنادى : الا تعجلوا اولادكم عن
الفطام فانا نفرض لكل مولود فى الاسلام .

وجاءت اليه يوما امرأة وقالت : يا امير المؤمنين هلك زوجى وترك
صبية صغارا ليس لهم زرع ولا زرع ، واخشى عليهم المجاعة ، وانا ابنة
خفاف بن امين الغفارى . فقال لها عمر : مرحبا بنسب قريب . ثم انصرف
الى بعير قوى ، فحملة غرارتين مألها طعاما ، وجعل معهما نفقة وثيابا ،
وناولها المرأة قائلا : اقتاديه فعسى ان يعنى هذا حتى يأتىكم الله بخير .

لا استغلال :

لقد تشدد الاسلام فى نظريته الى العدالة من زاويتها الاقتصادية فحرم
ما نسميه اليوم بلغتنا السياسية : الاستفاداة غير المشروعة عن طريق استخدام
النفوذ والسلطان .

وحيثا لو أصغى حكامنا اليوم الى التاريخ الذى يروى من روائع
الاسلام وفضائله وسلوك اتباعه الأولين ما يلى :

رأى عمر بن الخطاب ابلا سميئة ، فسأل عن هذه الإبل ، فقيل له : انها
لعبد الله بن عمر فقال عمر : ما سممت ابل عبد الله الا لأنه أرهاها بجاه أمير
المؤمنين ادفعوا بها الى بيت المال .

واستدان بعض ولد عمر مالا من ابي موسى الأشعري اذ كان والى الكوفة فتاجر به فاصاب ربحا كثيرا ، فلما تطاير خبر هذا الربح الى عمر استجوب ولده عن مصدره فاجابه انه تاجر بمال استقرضه من ابي موسى فدر عليه هذا الربح الكثير ، فقال عمر : انك حينما اشتريت ارخصوا لك الثمن لانك ابن امير المؤمنين . اذهب الى بيت المال فشاطره تجارتك .

وفى خلافة على بن ابي طالب رضى الله عنه ، قدم عليه أخوه عقيل وكان ذا عيلة فسأله الزيادة فى حصته من بيت المال حتى تقوم بحاجة ابنائه فواعده المساء ، فلما أقبل فى موعده قال له خذ هذا .. وأشار الى شىء فى الأرض حسبه عقيل صرة فيها مال فهوى اليها فاذا هى جمرة من النار تكوى أنامله ، ففزع وقال لعلى : بئس ما جزيت اخاك ، أسألك مالا استعين به على حاجتهم فتعطينى جمرة ؟ فقال له على : أهذا مبلغ فرعك من جمرة أحماها صبي اللعبه ، وتريد أن تقذف بى فى نار سعرها جبار لغضبه ؟

حلقات التكافل الاجتماعى :

بقيت ناحية مهمة جدا من الموضوع ، وهى مبدأ التكافل الذى فرضه الاسلام وعبر عنه بالأمر التالى :

١) بالزكاة وهى فريضة غايتها الحد من مساوىء النظام الاجتماعى وقد نجحت الى حد بعيد ، فى تحقيق العدالة الاجتماعية بوجهها الاقتصادى اذ يروى لنا التاريخ أن عمر بن عبد العزيز لم يجد فى زمن ولايته فقيرا يصرف له من فيض الزكاة .

٢) بالصدقة ، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرغب بها ويحث عليها فيقول لعائشة « اتقى النار ولو بشق تمره » و « ما نقصت صدقة من مال » .

٣) بالوصية فى المال لوجوه الخير والفقراء ، وقد كان الرسول ايضا

يرغب بها ويحث عليها : يروى أن ابن عوف سمع النبي صلى الله عليه وسلم يرغب في الوصية للفقراء بشيء من المال فبلغ من تأثره أن دعا بكاتب وجريدة ثم أمر باحصاء ثروته وأحصى الفقراء في جريدة أخرى ثم قسم ماله جميعا بين الفقراء . وبعد أن فرغ من تفريق ثروته كلها تذكر ثلاثة من الفقراء ، لم يوص لهم بشيء وعز عليه أن ينتفض ما سبق أن أوصى به لعامة الفقراء فلم يجد إلا متاعه الخاص فأمر الكاتب أن يلحق في جريدته : وان عمالتي لفلان وان قبيصي لفلان وان دابتي لفلان . فلما بلغ امره رسول الله دعا له ثم قال : حسبك الثلث وفي الثلث كفاية .

٤ — بالميراث الذي يهدف الى تفتيت الثروة واشاعتها بين أكبر عدد ممكن من أفراد الأسرة منعا لتحصن رؤوس الأموال وتجمعها في يد واحدة .

الدين والدنيا :

لا احسب أن نظاما من الأنظمة الاجتماعية الحديثة ، مهما بلغ من الحرص على تأمين العدالة ، يستطيع ان يؤمن هذه العدالة ويوفرها للمجتمع كما أمنها الاسلام ووفرها .

فالاسلام مع كونه دينا يعنى بتطهير الروح وتهذيب النفس فقد نظر الى الحياة نظرة واقعية وادرك ان هذه الحياة لا يمكن ان تستقيم ، وان يبلغ الانسان فيها سعادته ، الا بتحقيق التوازن بين الروح والمادة .

« ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »
بشل هذا الفهم الواعى للحياة ، بدأ الاسلام نضاله لبناء مجتمع صحيح يتحقق فيه التوازن ، وقد استطاع ولا ينكر ذلك الا المكابر ، استطاع ان يقبم مجتمعا صالحا أعطى الانسانية الكثير من قيمها ودفع بها الى الامام فى معارج الرقى والتقدم والحضارة .

أين هو المجتمع المثالي ؟

ان التاريخ يشهد بأن الاسلام كنظام اجتماعي أثبت جدارته لتنظيم الحياة تنظيما رائعا . وما الحضارة العربية الزاهية ، في الأندلس ودمشق ، والمدينة المنورة ، وما الوثبة الرائعة التي فتحت العيون الكلييلة على النور والحرية ما ذاك كله الا ثمرة ذلك التنظيم وعطاء ذلك النظام .

هاتوا لى — قرائى الأجزاء — فى القرن العشرين ، فى قرن الذرة ، فى قرن المعجزات العلمية ، هاتوا لى انسانا كالانسان الذى رباه الاسلام ، هاتوا لى انسانا يفهم القرآن كما فهمه العرب الأولون ، ويطبق احكامه وتعاليمه كما طبقوها ، ويشيع روحه فى نظام الحكم كما اشاعوه ، هاتوا لى انسانا من هذه الطينة . اعطكم مجتمعا صالحا لا عوج فيه ولا أمتا ، مجتمعا لا يحتقر فيه الانسان ولا يجوع ولا يعرى .

من حقنا :

أليس من حقنا ان نقول للتاريخ : افتح اذنك لتسمع صيحة الاسلام تصرخ بالناس صراخا يفزع الظالمين والجشعين « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ثم تؤجج عليهم ثورة المظلومين والمحرومين بالحديث النبوى « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يضرهوا على يديه أوشك الله ان يعمهم بعذاب من عنده » وبكلمة أبى ذر المدوية : « عجبت لمن لا يجد القوت فى بيته — كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه » .

أليس من حقنا ان نقول للتاريخ : افتح عينك لترى محمد بن عبد الله تساق اليه أموال الأرض وكنوزها ورغد عيشها وهو الحاكم المطاع فيفرقها فى الناس ، ولا يحرم منها الا خاصة أهله وذوى قرباه ، حتى اذا عاتبه نساؤه فى ذلك أعلن أن ولاية الأمر لست مغنما يمتاز به السلطان عن سائر

الناس .. « ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعنن واسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » .

أليس من حقنا ان نستوقف ركب التاريخ لنقول له : سجل بمداد الفخر والاعجاب : ان رئيس الدولة الاسلامية الأولى صلوات الله عليه قد مات ودرعه مرهونة عند يهودى . وان ابا بكر قد فارق الدنيا محروما من كل مال كان له قبل الخلافة ، وان عمر ، كان يقول : لو عثرت بغلة بالعراق لرأبتنى مسئولا عنها بين يدي الله :

ورثنا المجد عن آباء صدق أسأنا فى ديارهم الصنيعا
اذا المجد الرفيع توارثته دعاة السوء أوشك ان يضيعا

الديمقراطية المفتوحة

* الديمقراطية الحديثة كلمة جوفاء ، حشوها هواء ومبادئها هراء ، أما ديموقراطية الاسلام فسلوك انساني رفيع ، يرتكز الى أنبل ما فى النفس الانسانية من نزعات ، انه يقوم على دعائم الحق والحرية والعدل والمساواة .

* تعالوا نتبع ديموقراطية فرنسا .. أم الحريات ، وتفحص سلوكها تجاه الشعوب لنلمس الخدعة الكبرى التى اختبأت وراء البرقع الحريرى الرائع ، انها تتغزل بالحريات وكرامة الانسان ثم تنكفئ لتشكل بالحريات ولتنتهك — بكل استخفاف — كرامة الانسان .

* تعالوا نبحث عن أمثلة من ديموقراطية بريطانيا ، والولايات المتحدة ، بين مليون متشرد عربى أرادت لهم ديموقراطية الانكليز والامريكان أن يموتوا جوعا وبؤسا وعرياً ، ارضاء لحفنة من المرابين :

اننا نظلم « الديمقراطية » حين ننسبها ظلما وعدوانا الى المتآمرين على الشعوب ، الذين يتاجرون بالمبادئ ، ويدنسون طهارة المثل .

لقد كثر الحديث ، فى عصرنا عن الديمقراطية ، وكثر المتشددون بهذه الكلمة ومن واجبنا اليوم ان نميط اللثام ، عن وجه أولئك المتشدين ، وأن نبين للناس الفوارق بين ديموقراطية مزعومة ، وبين ديموقراطية صحيحة ،

هى ديموقراطية الاسلام ، ذلك الدين الذى اراده الله نظاما للحياة المثلى ، ومطهرا للنفس الانسانية من ادرانها وشوائبها .

ان الرجعة العابرة الى التاريخ الاسلامى ، تظهر تلك الفوارق بوضوح وجلاء فالديموقراطية الحديثة كلمة جوفاء ، حشوها هواء ، ومبادئها هراء ، أما ديموقراطية الاسلام فسلوك انسانى رفيع يرتكز الى أنبل ما فى النفس الانسانية من نزعات ، انه يقوم على دعائم الحق والحرية والعدل والمساواة .

فأين ديموقراطية اليوم من ديموقراطية ابن عبد الله ؟ ذلك اليتيم الأسمى الذى انبته الصحراء وهيأته الأقدار لاقاذا العرب من ظلمات الجهل والفوضى والضعينة .

ديموقراطية محمد :

لقد استطاع محمد صلى الله عليه وسلم أن يدحر قريشا ، بعد ما ارغمته هى على أن يخوض معها معركة حياة أو موت ، استطاع أن ينتصر على عنجهيتها باتباعه القلائل الذين لاسلاح لهم : الا الايمان بالله ، والتضحية بكل شىء فى سبيل العقيدة ، فماذا فعل محمد بقريش التى عذبتة وآذته وأدمت قدميه ، ورجمه سفهاؤها فى الأمس القريب ، بالحجارة ؟

أترأه سيتيح للسيوف العطشى أن ترتوى من دمائهم ؟

أترأه سينتقم للضحايا التى ارداها الظلم والتعذيب ؟

أترأه سينسى كيف ارغموه واتباعه على الهجرة مرتين ، وكيف حاصروه فى الشعب حتى اضطر هو وهؤلاء الاتباع ان يأكلوا العشب ويتغذوا بأوراق الشجر !

كلا ان محمدا لم يبعث ليؤجج نار الضعينة . ولم يرسل ليعطى الأماثل فى الانتقام والثأر ، لذلك وقف بين الكفار من قومه وكلهم مطرق أمام

الفاتح المنتصر وقف ليسألهم : ما ترون أنى فاعل بكم ؟

ولاحظ ابن عبد الله أن بعضهم يرتعد فرعا ، وقرأ فى عيون الكثيرين منهم أنهم يتوقعون منه أن ينزل أشد العذاب والتنكيل جزاء ما قدموا ، فأحب أن يحقق قول الله فيه : وانك لعلى خلق عظيم .

لقد قال لقومه الذين عذبوه وعذبوا اتباعه ما لم يقله فاتح فى التاريخ لأعدائه ، قال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وذهب الطلقاء مشدوهين ، وادركوا عندئذ ان رسالة محمد هى رسالة الحق والخير والمحبة والسماح .

واليكم قرائى الأجزاء جانبا آخر من ديموقراطية محمد صلى الله عليه وسلم :

ان الرسول العظيم الذى سيطر على جزيرة العرب لم يداخله الكبر يوما .. ومعاذ الله ان يداخله شىء من هذا ، لقد كان باستطاعته أن ينعم من الدنيا بما شاء وتشتهى نفسه . كان باستطاعته أن يحيى حياة الملوك والقيصرة . كان بإمكانه أن يتمتع بموارد الدولة التى أقامها بجهادة ونضاله . ولكن معاذ الله أن يزل محمد أو يتبدل ، فلقد ظل وهو الرسول العظيم وسيد قریش وزعيمها السياسى الأكبر ، ظل يخصف نعله ويحلب شاته ويرقع ثوبه ، ويحيا حياة المتقشفين الزاهدين لأنه يعرف تمام المعرفة أنه المثل الأعلى للرعية ، وان المثل يجب أن يظل على سموه ليظل مثلا أعلى .

ليسمع عظماء اليوم :

قد يقول قائل : تحدثنا عن ديموقراطية محمد ، ومحمد نبى حلاه الله بأخلاق الأنبياء ، فلا يمكن أن يصدر عنه الا ما هو خير وحق وعدل ، فدلنا على الديموقراطية عند اتباع محمد .

أجل قرائى الأجزاء ان محمدا نبى بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، فتعالوا
معى الى فرائد التاريخ الاسلامى وكنوزه ، نستخلص منها الشواهد على
ديموقراطية المؤمنين بمحمد .

لقد انتقلت أعباء القيادة الدينية والزمنية بعد وفاة الرسول الى أبى بكر
الصديق ، فأنفذ أسامة بن زيد على رأس جيش الى الشام ، وزوده بهذه
الوصية التى يجب أن تكون دستوراً للناس فى القرن العشرين : قال أبو بكر
لجنود أسامة .

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً
كبيراً ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة
مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لمأكله ، وسوف تمرن بأقوام
حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له » .

الا فليسمع جزارو القرن العشرين ، ليسمع أولئك الذين ازهقوا مئتى
ألف نفس بشرية بريئة بقنبلة ذرية واحدة ، محت من الدنيا مدينة
« هيروشيما » .

ليسمع أولئك الذين لم يرحموا طفلاً ولا شيخاً ، ولا امرأة .. فى
المغرب العربى ليسمع أولئك الذين اتخذوا الغدر ديدناً وخطة .

ليسمع أولئك الذين يرون النصر كل النصر فى احراق الأرض وما عليها .
وتدمير ما أقامه جهد الانسان فوقها .

ليسمع أولئك الذين تلعنهم كل شجرة مثمرة قطعوها ، وكل روح دابة
ازهقوها .

ليسمعوا وليتأملوا على الاسلام .. الذى أراد ان يحفظ للانسان
كرامته حتى فى ساحات الحروب .

صفحة ناصعة :

لنقلب صفحة ثانية من صفحات تاريخنا .. فهذا عمر بن الخطاب يتولى شؤون المسلمين ، فيشعر منذ اللحظة الأولى التي تنتقل اليه فيها أعباء القيادة ، بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه ، فيصمم ان يرضى الله ورسوله وضميره والشعب .

ولكى تصور ديموقراطية ابن الخطاب نجب أن نذكر هذه الحادثة البسيطة التي تحمل فى مطاويها أعماق معانى الديموقراطية وأسمى مظاهر الانسانية :

لقد كان عادة هذا الخليفة العظيم أن يتفقد أحوال الرعية متنكرا . متسترا بظلام الليل وصدف ان سجع فى احدى جولاته الليلية صبية يسكون ، فأحب أن يستطلع الأمر ، وسرعان ما توضحت له خطوط المأساة .

لقد رأى عجوزا تضع قدرها على النار ، وصبيتها من حولها يضجون . انهم جياع يقض الطوى مضاجعهم ، وليس فى الكوخ ما يسد الرمق ، وليس باستزاعة العجوز المسكينة أن تتغلب على البؤس الذى يضارعها ويضارع صغارها ، فلجأت الى الحيلة تخدع بها الصبية دون أن يتاح لها أن تخدع الجوع .

ووضعت على النار قدرا وملائته ماء وتركته يغلى . وكانت كلما ألق صغارها فى البكاء تسرف فى تهدئتهم ، وايهامهم أن الطعام المؤمل قارب أن ينضج ، علمهم يلتهمون بالوعد عما هم فيه فيناموا .

رأى الخليفة هذه المأساة الحية ، ففاضت عيناه بالدموع ، وسارع الى بيت المال فحمل على ظهره كيسا من الدقيق ، وقصد بيت العجوز التي تخدع صبيتها ، فقرع بابها وألقى الكيس بين يديها ، ثم باشر فى اعداد الطعام لصغارها . وكان كلما خبت النار أو كادت ، ينحنى عليها لينفخ فيها ، فيتطاير رمادها الأغبر ، ليتخلل لحيته ، ويمأ عينيه ، حتى اذا فضج الطعام وأكل الصبية استراح ضمير عمر .

هل فى تاريخ الأمم التى تتشدد اليوم بالديموقراطية أمثلة كأمثولة
عسر .

أمثلة رائعة :

وما دما نتحدث عن الديموقراطية .. فاليكم أيضا هذه القصة التى
يروىها التاريخ باعتزاز عن ابن الخطاب .

اعتلى عمر المنبر مرة ليخطب الناس فقال : أيها الناس اسمعوا وأطيعوا .
فانتصب من بين المسلمين بدوى رث الهيئة زرى المنظر ، وجابه خليفة
المسلمين قائلا : لا سمعا ولا طاعة يا عمر .

وثارت نائرة المسلمين ووثبوا الى البدوى الجلف يريدون أن يحسنوا
تأديبه ، وأن يعلموه كيف يخاطب أمير المؤمنين . ولكن ابن الخطاب يصيح
بهم : دعوه !

.. وهدأت الضوضاء ، وبقي بريق العيون الغاضبة الحاققة ينصب
مخيفا مرعبا على رأس البدوى .

وسأل عمر البدوى المتمرد الذى لا يريد أن يسمع ، ولا يريد ان يطيع ،
سأله برفق : ولم يا أخا العرب ؟

وارتفع صوت البدوى متهما ، قال للخليفة ما معناه : لقد وزعتم
الحبرات اليمانية التى غنمناها فأصاب المحارب منا حبرة من هذه الحبرات ،
وقد حاولت وأنا المتوسط القامة ان اجعل منها ثوبا لى فلم تكفى ، وهاأنذا
أراك وأنت الرجل الطويل الفارغ ، ترفل بثوب من تلك الحبرات .

وسكت البدوى .. وظل صدى صوته يصفع ابن الخطاب بهذا
السؤال : من أين لك هذا ؟ من أين .. يا عسر ؟

ومرة ثانية يثور الضجيج . فالبدوى الوقح يتهم أمير المؤمنين ، يتهمه
بالاثرة والتوسيع على نفسه من مال الأمة . يتهمه بأنه يأخذ من الغنائم ! أكثر
مما يأخذ المجاهدون .

ومرة ثانية يهدىء ابن الخطاب من ثورة الغاضبين ، ويتسهم للاتهام الخطير ، ابتسام الواثق من البراءة ثم يلتفت الى ابنه عبد الله قائلاً :

اجبه يا عبد الله !

ويقف ابن الخليفة ليعلن على الناس كيف لبس أمير المؤمنين ثوبا من الحبرات اليبانية التي لا تكاد الواحدة منها تكفى لثوب رجل واحد ، وأوضح لهم انه تنازل عن نصيبه من الغنينة لوالده فجعل من الحبرتين معا ثوبا له .

واقنع الاعرابى المتشكك بعدالة الخليفة ، وأدرك أنه أسرف فى سوء الظن ، فإغرورقت عيناه ، ووقف وهو يجس الدعمة بين أجفانه ، ويقول باجلال واكبار : الآن سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين :

اختيار الحكام :

وكان عمر اذا استعمل الولاية على الأمصار ، يقول لهم : انى لم استعملكم على أمة محمد ولا على اعشارهم ولا على ابشارهم ، وانما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة ، وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل ، فاذا خالف الأمير الوصية ، فشتهم أحدا من الرعية ، أو ضربه ، أو حابى أحدا فى العطاء ، أو صانع أحدا فى القضاء ، أو احتجب عن الناس وتهاون فى خدمتهم ، كان لعمر معه موقف ينتهى دائما الى الاقتصاص للرعية من الأمير أو مصادرتة أو عزله ، أو الى هذا كله .

والواقع ان أكثر العمال الذين عزلهم عمر انما عزلهم لخياتتهم فى الأموال العامة ، أو لاستنطالهم على الرعية ، أو لعجزهم عن خدمة الشعب ، ولكنه لم يعزل عاملا لمجرد ان اجتهاده فى الأمور مخالف لاجتهاد عمر ، وانما كان يراقب عماله ، وينصحهم أحيانا ، ويأمرهم أحيانا ، لقد كان عمر « محكمة تمييز » بالنسبة لهم .. لا تمنع الاجتهاد ولكنها تمنع سوء

الاجتهاد ، ومن الحق أن نقول ان مراقبته لعماله كانت شديدة الوطأة ، وكان يتدخل فى كل كبيرة وصغيرة ، لأنه كان يعد نفسه مسؤولا عن عماله ، متحملا لأوزارهم .

فقد كان يجمعهم فى موسم الحج ، ليحاسبهم ولينظر فيما عملوه طول السنة . وليصغى الى شكاوى الرعية منهم ، وكان اذا ثبت له أن الأمير ضرب أحدا من الناس ، أعطى المضروب درته وقال له : هلم اقتص من الأمير .

وكان اذا بعث بعامل يشترط عليه ان لا يركب برذونا ، والا يلبس رقيقا ، ولا يأكل نقيا ، ولا يتخذ حاجبا .

وقد بلغه مرة ان عامله على البصرة خالف هذه الوصية ، فكتب اليه : بلغنى أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ، ومطعمك ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها ، فياك يا عبد الله ان تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصب ، فلم يكن لها هم الا السمن وانما حنفتها فى سمنها .

محاسبة الولاة :

وأخبر ان عامله على مصر يلبس الرقيق ، ويتخذ الحاجب ، فأمره عسر بالقدوم عليه ، فلما رآه قال : انزع قميصك ، ودعا بمدرة صوف ، وبربيضة من غنم وعصا ، وقال له : البس هذه المدرة ، وخذ هذه العصا واراع هذه الغنم ، أسمعت ؟ قال نعم ، والموت خير من هذا .

وسأل أهل حمص عن أميرهم عبد الله بن قرط فقالوا : خير أمير : الا انه قد بنى عليه يكون فيها ، فأمر أحد رجاله فجمع حطبا واحرق باب عليه الأمير .

وكتب الى سعد بن أبى وقاص أميره على الكوفة ، وكان استأذنه فى بناء بيت يسكنه : « ابن ما يسترك من الشمس ويكفيك من الغيث » .

وكان عمر ينهى عماله عن قبول الرشوة ، ويمنعهم من التجارة . فمن اتجر قاسمه ماله . ومن عماله الذين صادرهم ، ابو هريرة عامله على البحرين . فقد اخذ منه ما ربحه من التجارة وجعله فى بيت المال ، فليس من شأن الامراء أن يشتغلوا بالتجارة ويزاحموا الرعية فى عملها ورزقها .

وطلب عمر فى زيارته للشام ، أن ترفع اليه اسماء الفقراء ، فرفعت اليه رفعة فوجد فيها اسم سعيد بن عامر أميره على حمص ، وكان أهل حمص قد شكوه الى عمر وقالوا : انه لا يخرج اليهم حتى يتعلى النهار فسأله عمر عن ذلك فقال :

نعم ، فليس لأهلى خادم ، اعجن عجيني حتى يختمر ، ثم اخبز خبزي ، ثم أتوضأ ثم اخرج اليهم .

بين عمر وعامل حمص :

واستعمل عمر على حمص « عمر بن سعد » ثم كتب اليه : ان يقدم عليه . فقدم ماشيا ، حافيا ، معه عكازته وادواته (١) ومزودة وقصعته على ظهره ، فعجب عمر من حاله وقال له يا عمر أختتنا أم البلاد بلاد سوء ؟ فقال : يا امير المؤمنين أما نهالك الله عن سوء الظن وما ترى من سوء الحال وقد جئتك بالدنيا أجرها براقبها ؟

قال عمر : وما معك من الدنيا : قال : عكازى اتوكأ عليها وادفع بها عدوا ، ان لقيته ، ومزودى أحمل فيه طعامى ، وادواتى هذه احمل فيها ماء لشرى وصلاتى ، وقصعتى هذه أتوضأ فيها واغسل رأسى . فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد الا تبعا لما معى .

ما قرأت مثل هذه الاخبار المنتشرة فى زوايا تاريخنا العربى الرائع ، الا وتوالت فى ذهنى ، صور من المقارنة بين اولئك الاجداد ، وهؤلاء الاحفاد ، بين ولاة الامس واولياء اليوم ، الذين يعتبرون الخدمة العامة وسيلة للاثراء

والكسب غير المشروع ، والذين يعتبرون الاموال العامة ، رزقا مستباحا يحل لهم أكلها بالباطل ، والذين تسهويهم مظاهر السلطان الزائل فلا ينقلون الا بموكب ، ولا يتحركون الا بضجيج يصطفونه حولهم ليضفى عليهم هالة من العظمة ، والأبهة الفارغة ، والوقار السخيف .

لقد كانت العدالة عند اجدادنا ، هي الجند الحارس الامين لذى السلطان يحتمى بها ، ويستظل بظلها . اما اليوم ، فالبنادق التى لا تنام ، والجند المدجج لذى لا يستقر ، ولاسوار التى لا تقهر ، هى الحرس الذى يحتمده الحاكم لحماية نفسه من مظالمه . هذه المظالم التى يزرعها فى كل مكان فلا يحصدها الا تقمة وثورة ولعنة فى اهون الاحوال .

دميوقراطيتنا وديموقراطيتهم :

لقد ضربت لكم - قرائى الاعزاء - فيما سبق الامثلة على ديمقراطية الاسلام فى كل مجلى من مجالى الحياة ، وسأحاول ان استعرض معكم بعض « العينات » من ديمقراطية الغرب .

ان ارجع بكم القهقرى الى العهود التى كان الغرب يزرع فيها تحت وطأة الجهل والهمجية ، فستقولون ان الديمقراطية لا يمكن ان تنشأ فى كنف الجهل ، ولا يعقل ان تترعرع فى ظل الهمجية .

ان احديثكم عن محاكم التنقيش فى اسبانية ، وعن تلك المجازر الرهيبة التى اقترفها الوحش الهائج وقضى بها على مئات الالوف من العرب ، لا لذنب الا لانهم حملوا الى الغرب رسالة النور والتهذيب والسمو والتمدين .

ولن احديثكم عن ذلك الحقد الوحشى ، الذى دفع بالكتائب العطشى الى الدم ، فانطلقت باسم المسيح ، تدنس مقر المسيح وتقوض دعائم المحبة التى اقامها ، وتشر الدمار فى أرض السلام التى اراد لها أن يظلها غصن الزيتون .

لن احدثكم عن ذلك ، وانما سأضرب صفحا عنه ، وانتزع امثلى من عصور النور ، من العصور التى بلغ الغرب فيها ذروة الرقى المادى وهوى فيها مع الاسف ، الى اسفل دركات الانحلال الروحى .

ماذا تفعل فرنسا :

يعلم الجميع ان فرنسا ، ما لبثت منذ ثورتها تدل على الدنيا ، بما طلعت عليها من مبادئ قررت حقوق الانسان . فتعالوا تتبع ديمقراطية فرنسا ، أم الحريات .. تعالوا تتفحص سلوكها تجاه الشعوب لنلمس الخدعة الكبرى ، التى اختبأت وراء البرقع الحريرى الرائع .

أليس من المضحك حقا أن ترتفع عقيرة فرنسا مثلا لتردد على مسمع الدنيا ، أسطوانة أمجادها ، ولتنزل بالحريات وكرامة الانسان ، ثم تنكفى لتتكلم بالحريات ولتنتهك - بكل استخفاف - كرامة الانسان .

مجازر الجزائر :

لن أذكركم بفظائعها فى سورية ولبنان ، وكلنا ما زال يذكر كيف غرست أرضنا مآسى ، وانما أود أن انقل اليكم شهادة وردت على لسان أديبين فرنسيين معاصرين ، اصدرا مؤخرا كتابا عن الجزائر سميها « الجزائر الخارجة على القانون » وقد نشرت مجلة الآداب البيروتية ملخصا له فى عددها الصادر فى آذار ١٩٦٥ ، فاستمعوا بالله عليكم الى « كوليت وفرنسيس جونسون » يؤديان امام التاريخ هذه الشهادة ، ويعطيان بعض الأمثلة عن بطش فرنسا بالجزائريين فيقولان :

« فى مساء السادس من نيسان ١٨٣٢ يوجه القائد ROVIGO حملة على قبيلة « أليفا » فى الجزائر فيذبح جميع اهليها ، دونما تفريق بين شيخ أو طفل ، بين امرأة أو رجل ، ويحمل الظافرون بعد ذلك رؤوس القتلى على رماحهم » .

« وفي تشرين الاول من عام ١٨٣٦ ترسل الرؤوس كما ترسل الهدايا وتباع الماشية ، لئفصل الدنمارك ، ويعرض باقى الغنيمة فى سوق باب الزون حيث ترى أساور النساء ، وهى ما تزال فى معاصمهن المقطوعة ، واقراطهن المتدلّية من قطع آذانهن ، ويتوزع الظافرون الصفقة ، ويؤمر سكان مدينة الجزائر بعد ذلك باشعال النار فى حوائثهم ابتهاجا بهذا الحادث السعيد . »

« ذلك ان الفرنسيين المعتدين ، اخذوا يتذوقون حملات الافناء هذه ، وقد خلق لدى محاربيهم ذوق خاص ، للاستمتاع بفنون التعذيب والتقتيل ، وفرض الغرامات المالية فوق ذلك ، بل خلق لديهم ولوع خاص بالعدر والضحك من الوعود والاستهزاء بالعهود والحدود ، فهذه قبيلة تعذب بعد أن اعطيت وعدا بأن تصان ، فيسلب منها أولا مائة الف فرنك ، وتؤخذ أملاكها دون تعويض ، بل يكره بعض المالكين على ان يغادروا منازلهم ، لتخرب بعد ذلك ، وليدفعوا نفقات تخريبها ، بل نفقات تخريب الجامع هناك ، وهذه معابد وجوامع وقبور وحرمت تدنس وتنتهك ، وها هم أولاء اتباع الحاكم BUGEUT يتغنون عام ١٨٤٢ بالحرائق التى شهدوا نارها الجميلة فى قرى : بنى مناصر ، وبنى سالم ، وبلقاسم . »

فظائع مربعة :

ويتابع المؤلفان سرد فظائع فرنسا قائلين : « وهكذا يتردى الفاتحون فى مجون الفتح ، فيتلاعبون بالانفس تلاعبهم بصيد ، ويشرون الضحايا كما تشرى طيور البر ، فيدفع ثمن زوج من آذان المواطنين عشرة من الفرنكات ، ويبحثون خاصة عن صيد النساء ، فهو عندهم صيد رفيع كامل يحتفظون ببعضه ، ويساومون على بعضه الآخر مقابل الخيل ، ويبيعون بعضه بالمراد العلنى . »

وأجمل بدعهم حرق الجماعات . واليكهم وضعا موجزا للحريق الذى أمر

به ، عام ١٨٤٥ ، وأى قلم يستطع وصف ذلك المشهد ، كما يقول أحد الجنود الذين وصفوه :

« فى قلب الليل وفى ضوء القمر ، ترى فريقا من المحاربين الفرنسيين مشغولين بإيقاد نار جهنمية ، وتسمع الأئين الاصم من رجال ونساء وأطفال وبهائم ، وتصل اليك أصوات الصخور وهى تنفتت ، وفى الصباح تدخل الكهوف الثلاثة التى أحرقت ، فترى فى مدخلها الثيران والحمير والخراف ، وبين هذه الحيوانات ، وتحث أرجلها تجد الرجال والنساء والاطفال ، وتشهد بعينيك رجلا ميتا ركبته على الأرض ، ويده ما تزال ممسكة بقرن ثور ، وامامه امرأة تحمل صغيرها على ذراعيها ، وتعد القتلى فى هذه المغاور الواسعة ، فتبلغ عدتهم ٧٦٠ جثة » .

شاهد من أهله :

هذه شهادة يؤدبها فرسيان . وقد استقيا معلوماتهما عن تقرير لجنة التحقيق التى قامت بأعمالها بين ايلول وتشرين الثانى عام ١٨٣٣ . فلننتقل الى عصر الذرة فماذا نجد ، ان الاساليب نفسها مازال تستخدم ، والارهاب الفرنسى فى المغرب العربى كان يعتمد على خطة واضحة يعتبرها أنجح الوسائل للقضاء على روح المقاومة ، ألا وهى الافناء . واليكم قصة تناقلتها الصحف وكالات الانباء ، فى بدء الثورة المغربية الاخيرة .

لقد جمع الفرنسيون جميع سكان احدى المدن الجزائرية وصبوا البترول على وجه الماء فى المستنقعات القريبة ، ثم امروا الجموع بالتوجه الى هذه المستنقعات ، وعندما لاحظوا ترددها فتحوا عليها نار البنادق والمدافع الرشاشة ، فاندفع الناس الى الماء ، يحتضون به من الرصاص ، حتى اذا غصت المستنقعات بالرجال والنساء والاطفال ، أشعل المستعمرون النار فيها ، ولم يكده ينتصف النهار ، حتى كان عدد الذين قضوا بهذه الطريقة ، غرقا وحرقا وقتلا يزيد على السبعين الفا .

وأى شاهد على ديمقراطية فرنسا ابلغ واصدق ، من هذه الحرب
الافنائية ، التي كانت فرنسا على الجزائر .. وتحشد مئات الالوف من
الجنود ، وكل ما لديها من قوى الجو والبر والبحر .

ماذا تفعل بريطانيا :

وهاك ايضا مثالا صغيرا على ديمقراطية بريطانيا ؟

اسألوا ثرى النيل ، وساحات بغداد ، وربوع الهند ، بل اسألوا فلسطين
الشهيدة ، اسألوا مليون متشرد عربى ، أرادت لهم ديمقراطية الانكليز ان
يموتوا جوعا وبؤسا وعريا ارضاء لحفنة من الافاقين وحتالات الشعوب .

اسألوا طبريا وحيفا واللد والرملة ودير ياسين ، اسالوا تاريخ دنيا
العرب يأتكم الجواب صريحا لاغموض فيه ولا ابهام : ان نكبة العرب الكبرى
من صنع الانكليز ، فهم اساتذة فى فن الخيانة والتدجيل على الشعوب ،
والتنكر للعهود والمواثيق وازدراء كلمة الشرف ، وظلوا يناصرون أمة
العرب العداء ، يجيكون لها الدسائس ، كلما جمعت عزمها ، وحاولت أن
تنهض من كبوتها ، وأن تقف على قدميها .

ماذا تفعل أمريكا :

قد يقول قائل وما قولك بديمقراطية الأميركيان ، حماة الحريات
الأربع وناقى الانسانية أمثال : واشنطن ولنكولن وسواهما ؟ لن أتعرض -
قرائى الاعزاء - جوابا على هذا التساؤل ، الى الدور الانسانى اللاديمقراطى،
الذى ما برحت أميركة تلعبه منذ ربع قرن تقريبا والذى مثل فيه الرئيس
ترومان فصلا رهيبا .

لن اتعرض الى المجزرة التي أثارتها أميركة فى كورية ، ولن أبين مدى مساهمتها فى نكبة فلسطين . فقد يكون فى التعرض الى هذه الامور ، ما يحمل الشك بأئنى أعطى الحكم مشوبا بعبب التحيز وماخذ الانفعال .

ولكنى أود أن أبحث ديمقراطية الاميركان ، من زاوية أخرى ، وأنا مقتنع تمام الاقتناع بأن المهزلة الكبرى : مهزلة الحريات الاربع . ومبادئ ولسون لم تعد تعنى الاميركان شيئا بعد اليوم .

أمثلة من ديموقراطية أمريكا :

ان أمريكا التي تعتر بحرياتها الأربع . هى اليوم موطن العبودية .. موطن التمييز العنصرى .. فى زمن انهارت فيه كل العبوديات ، بما فيها الألوان .

واليكم بعض الامثلة :

لا تزال فى امريكا بعض المناطق يحرم على الزوج دخولها . وبعض الأماكن لا يباح لهم ارتيادها ، وقد حرمت قوانين بعض المقاطعات الأميركية على الزوج أن يركبوا القطار أو الأوتوبيسات التي يركبها البيض .

ومن منا لم يقرأ مأساة الطالبة الزنجية ، المسز « أرثولوسى » ، تلك الفتاة المسكينة التي أقامت مشكلتها أميركة ولم تقعد لها فترة طويلة من الزمن . لقد دفعها حب العلم والرغبة فيه الى أن تقصد جامعة تكساس ، وأن تعمل بكل الوسائل على الانتساب اليها ، وقد تمكنت بعد جهد من الوصول الى بغيتها ، ولكنها ما كادت تنجح فى ذلك ، حتى أعتبر الأميركيون قبول زنجية فى جامعة « أميركية » اهانة لا تغتفر لكرامتهم ، وقامت المظاهرات احتجاجا على ذلك ، وانفلت الناس هائجين ، مطالبين باخراجها من الجامعة ، ومعاقبة المسؤولين ، الذين مهدوا لها السبيل وأتاحوا لها الدخول .

ونزلت الجامعة عند ارادة الاميركيين « حماة المدنية » فطردت الطالبة ، وعندما تطوع أحد المحامين للدفاع عنها ، ولتبنى قضيتها ، انهالت عليه كتب الاستنكار والاحتجاج ، والتهديد بالقتل ان هو استمر فى غيه ، وفى تدنيس الشرف الأمريكى الذى لا يرضى أن يزامل الأبيض زنجى .

اللون المحرم :

واليكم — قرائى الأجزاء — حادثة أخرى بسيطة .. ولكنها قوية الدلالة ، رائعة التعبير نشرتها الصحف مؤخرا ، وهى ان دلت على شىء فانما تدل على نمط جديد من ديمقراطية الأميركان .

لقد غصت قاعة مسرح « برمنغهام » فى احدى الليالى بالرواد ، وقد جاؤوها للاستماع الى المغنى الزنجى المشهور « ناث كول » وما أن صعد المغنى خشبة المسرح حتى ثار الاميركيون البيض ، الذين كانوا فى القاعة ويقدر عددهم بـ ٣٥٠٠ شخصا ، وتقدم منهم عشرات فهاجموا المغنى وانهالوا عليه ضربا ولكما ، لا لسبب الا لأنه زنجى .

قد يعتقد الكثيرون ان التمييز العنصرى غير قانونى فى أميركا .

فاليكم هذه الحادثة الثالثة : لقد مرت احدى الفتيات « الطائشات » فتيات الشوارع الأمريكى ، وما أكثرهن ، أمام فتى زنجى مراهق ، فانتشى المسكين وراعه الجمال المتبرج المستهتر ، فند من بين شفثيه صغير اعجاب .

أفتدرون ماذا كان جزاء الفتى ؟ لقد هجم عليه شابان أميركيان وانهاالا عليه طعنا بالمدى حتى لفظ أنفاسه ومات من يومه . الى هنا والأمر عادى بالنسبة للأميركان ، ولكن أتدرون ماذا كان جزاء القاتلين ؟

لقد أعلنت المحكمة براءتهما ورفضت حتى تغريمهما بجزاء نقدى ، لا لشىء الا لأن المغدور زنجى تحرش ببىضاء .. ولم يشفع له ان الفتاة

لعوب ، وانها من فتيات الطريق ، وانه لم يزد على « ابداء اعجابه بها » .

لا وجود للديموقراطية :

أبعد هذا كله يحق للغرب ، أن يتشدد بالديمقراطية ؟
أهى ديمقراطية حقا ، أن يحارب الغرب الأحرار فى كل مكان ، وان
يخلق الحرية فى كل أرض ؟
أهى ديمقراطية حقا ، ان يحصد رصاصه الغاشم ، طلاب الانعتاق انى
كانوا ؟

أهى ديمقراطية حقا ، ان تتآمر دول الغرب على كل شعب ضعيف
لتنقاسمه تحت سمع هيئة الأمم وبصرها وبمعرفتها ، وتسرق خيراته باسم
الديمقراطية وحماية الحريات ، وتحرير الشعوب ؟
أهى ديمقراطية حقا ، ان تتساند هذه الدول ، كلما أرادت أمة مظلومة
من أمم الشرق ، ان ترفع الكابوس عن كاهلها ، والنير عن عاتقها ، فاذا ذئاب
الغرب لها بالمرصاد ، يخنقون كل انتفاضة ، ويكبتون كل حركة ، ويصعقون
كل مناد بالتححر ، أو عامل لوحدة الأوطان ؟

انبعاث الديمقراطية العربية :

ليعلم المتشدقون بالديمقراطية ، ان العرب والمسلمين ، قد استنشقوا
اليوم ، على الحقيقة الرهيبة والواقع المر ، وانهم باتوا يدركون ماذا تعنى
هذه الكلبة ، حين يتغنى بها الغرب ، ويترنم باسمها . انهم يعرفون انها
المصييدة ، التى ينصبها العدو الماكر ، للطريدة الساذجة . ولم نعد والحمد لله
سذجا يسهل ايقاعنا فى الشرك وجبائل المصائد .

ان الديمقراطية التي تؤمن بها ، ونعمل لها ، هي ديمقراطية الاسلام ،
الاسلام الذي أعطى أمثال الخلفاء الراشدين وسواهم من الأبطال الذين
اسهموا في تقدم الانسانية ، ورفاه البشرية ، وملأوا الدنيا عدالة ومجبة ،
وأخوة ومساواة ، ونشروا في الأرض الطمأنينة ، والحق والسلام .

الإشترائية الإسلامية

* الإسلام أبو الإشترائية قبل ماركس وانجلز واضرابهما ، وهو الذى نادى بالإشترائية المنظمة ، وقضى على الطبقة ، وألغى فروق اللون والجنس والدم ، وقتت الملكية الواسعة ، ورسم المناهج للقضاء على الفقر ، وجعل هذه المناهج ركنا من أركانه .

* الاعتدال صفة ملازمة للإسلام فى تشريعاته المالية ونحن لا نطالب بالتقشف ، ولا بالحرمان ، ولا بشظف العيش ، ولكننا نعلم بالحياة ونستمتع بطيباتها دونما ترف ولا اسراف .

* ان المسئول ، حين يحفظ للعامل حقه ، ويصون مستقبله ، ويسيجع من عوادي الزمن ونوازله ، انما يؤدى عبادة لله ، عبادة ليس السجود والركوع قوامها ، ولا الذكر والأوراد شكلها ، بل قوامها صيانة الحقوق والعمل بروح الإسلام ، وأوامر الله .

فى هذه الغمرة من الصراع العقائدى الذى يجتاح العالم يبدو ان الإشترائية هى النظام الذى سيكتب له النجاح ، كوسيلة لتحقيق العدالة الاجتماعية التى ينادى بها الناس ، وكقاهر جبار لذلك الترتيب الطبقي الذى كان وما زال بذرة الحقد المدمر ، المودى بالحضارات ، وبكل ما يبنى الانسان من خير وحق وجمال .

وقد وقف الناس فى شرقنا العربى من الاشتراكية مواقف مختلفة ،

فمنهم من تعامى عن حسناتها كلها ، واعتبرها شرا محضاً . وهؤلاء هم الرأسماليون وأنصاف الرأسماليين ، ومنهم من أرادها متطرفة جارفة حاقدة ، بل شيوعية بكل الظلال العلمية للكلمة . وهؤلاء هم الذين لا يؤمنون بالاعتدال . ومنهم من وقف يحاربها باسم الدين ، والدين براء من منطقها ، ومنهم من شوهدا ، واتخذها ستارا لجر المغانم وكسب الأمجاد الرخيصة .

ولا يعنينا من هذه المواقف الا واحد . هو موقف أولئك الذين يحاربون الاشتراكية باسم الدين ، ويناهضونها زاعمين انها تناقض جوهره ولا تأتلف مع تعاليمه .

هذا ما سنحاول بحثه الآن .

الاشتراكية قبل ماركس :

قبل أن يكون ماركس وانجلز وسواهما من فلاسفة الاشتراكية . كان الاسلام أباً للاشتراكية ، وكان محمد بن عبد الله امامها الأول :

الاشتراكيون أنت أمهم لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت مثئدا وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء
انصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء

فلقد جاء الاسلام والناس فوضى ، والطبقية المشينة تجلد بسوطها الكافر كرامة الانسان فأراد الدين الجديد أن يعيد للانسان كرامته المسفوحة ، وأن يقيم بين الناس علائق أساسها المحبة ، وقاعدتها الأخوة ، وركنها العدالة ، ولم يكتف بهذا الوجه من الاصلاح بل تجاوزه الى الاصلاح الاقتصادى والاجتماعى . فالى أى حد استطاع الاسلام أن يكون اشتراكيا فى سائر وجوه الحياة ونشاطاتها ؟

الاسلام والرأسمالية :

رأى الاسلام أن الفقر أساس كل مشكلة ، وأنه هو الذى يقيم نظام الطبقات وينمى الحقد الطبقي ، فنأدى بالاشتراكية المنظمة التى تقضى على الفروق المادية القائمة بين الناس ، وجعل للفقرأء حقاً معلوماً فى أموال الأغنياء :

« والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » وفرض على الأثرياء الموسرين أن يخرجوا زكاة أموالهم ، ويعطوها للفقرأء والمحتاجين ، لا كصدقة تذلل كرامة الفقير وتظن كبرياءه ، بل كحق له مفروض ، ونصيب له معلوم . وبذلك كانت فريضة الزكاة ركيزة اشتراكية ضخمة للمجتمع الاسلامى ، اذ انها أقامت التوازن الاقتصادى بين الطبقات ، وهى تشبه الضريبة المفروضة فى عصرنا الحديث على رأس المال مع فارق واحد هو أن الضريبة الطوعية « الزكاة » كانت أشمل من الضريبة الجبرية على رأس المال ، فهذه تتناول الرأسمال فقط ، أما تلك فتتناول الحلى والجواهر ، والعقارات وكل ما يمكن ان يمتلكه الانسان .

ان المال فى نظر الاشتراكية ملك الدولة . أما فى نظر الاسلام فهو ملك الله ، يتصرف به الانسان فى حدود المصلحة العامة أولاً فمصالحه الخاصة ثانياً ، فان أساء التصرف بالبخل أو التبذير أو سوء الاستعمال ، أوجب الاسلام على الدولة مصادرة المال واعادة توزيع الثروة العامة حسب المقتضيات والأحوال .

ولم يحرم الاسلام الملكية الخاصة الا لأنه وضع من ناحية ثانية ضوابط لها ، تكفل بقاء التوازن الاقتصادى دائماً .

وهذه الضوابط هى : الزكاة ، والوقف ، وقانون الوراثة ، وتحريم الاسراف والتبذير والفائدة والربا ، ومبدأ المصالح المرسله ، ومبدأ شيوع الموارد العامة ، ومبدأ تحريم الترف والاسراف ومبدأ تحريم الكنز .

تشابه نظام الوقف والنظام الاشتراكي :

ان نظام الوقف يعنى ابقاء عين الأرض محبوسة على الجهة المعينة لها الى قيام الساعة ، فلا يمسها تصرف ما ، أما غلتها فتتفق فى الوجوه التى حددت لها ، من وجوه الخير الموجودة أو التى ستوجد . وهذا يعنى أن الفقه الاسلامى سمح بان يجبس أصل الأرض ، وان تبذل ثمارها للمستحقين . وهذا ما توسع الشيوعيون فى تطبيقه وتنفيذه ، فأصبحت الأرض ، كلها ملكا عاما لا يتناولها بيع ولا ارث ، وأصبح الشعب كله مستحقا فيها .

نظام الوراثة :

أما الارث ، فهو نظام استطاع به الاسلام أن يحطم الرأسمالية ، ويفتت الملكية الواسعة ويجزىء التركة أرباعا وأثمانا وأثلاثا ، وقد رأى حزب العمال الانكليزى فى برنامج الاشتراكي ان يتجه بالموارث هذه الوجهة ، اذ أن الزكاة هناك والألقاب ، من نصيب الابن الأكبر وحده ، لتبقى الثروات على ضخامتها وليبقى للأسر الاتوقراطية دعامتها المادية التى تعزز بها وتشمخ .

لكن أغنياء المسلمين ، مع الأسف ، كثيرا ما يحتالون على أحكام دينهم باجراءات مصطنعة للفرار من تطبيقها ، فتارة يحرمون البنات ، وتارة يفضلون وارثا على وارث ، وما أكثر عقود البيع الصورى التى تنجو بها الملكيات الكبرى من التفتت والتوزيع العاذل ، رغم أنه أثر عن الرسول العربى العظيم انه قال : « الأضرار فى الوصية من الكبائر » ثم تلا قوله تعالى : « تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها » وما الحدود التى أشار اليها الله العلى الأعلى فى الآية الكريمة الا أنصبه المواريث ، كما وزعها على المستحقين

فى الآفة الكرففة : « فوصفكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثففن . الخ » .

قد فقال ان الاشتراكفة تنكر مبدء التورفث ولا تكاد تقره الا فى توافه المنافع وحببتها فى ذلك أن المفرث فنافى العدالة ، ومبدء تكافؤ الفرص ، وفنقل الثروة لمن لا فستحقها .. لأنه لم ففجنها بنفسه ، ولم ففكسبها بعمله .

ولكننا نرد الى ذلك أن نظام التورفث فى الاسلام له ضوابطه أفضا التى تجنب المجتمع مثل تلك المحاذفر التى فلمح ففها المعترضون . فالاسلام ففن حدد لكل وارث فظه من التركة ، وضع من القوانين ما ففحول دون سوء استعمال هذا النصفب الموروث ، فسد باب الحرام فى المجتمع كفلا فمكن انفاق المال فى الحرام ، وحد من نزوات الفرد ، فاذا ففج وتجاوز الحدود الى التبذفر والاتلاف ، أمكن الحفر ففله أن فف ودعن ضلاله .

الاسلام والربا :

قال تعالى : « أحل الله البفع وحرم الربا » وهذا فعنى الا جزاء فى نظر الاسلام الا على الففهد ، وبما ان رأس المال فى ذاته ففس جهدا فهو لا فرفف بذاته ، انما طرفة الربف الوحفدة هى العمل ، فلا ففجوز اذن أن ففكون وفجود المال عند صاحبه وسفلة لفرادة المال ، باضافة فائدة ففله عند اقتراضه .

ان هذا المبدء الأساسى فى الاسلام ففحول دون تضاعف المال بذاته كما ففقع فى النظام الرأسمالى ، وففحول دون تضخم الثروات على حساب حاجة الأفراد ، واضطرارهم للاستدانة بالربا ، كما ففمنع سببا رئيسفا من أسباب الاستعمار والحروب الدولية ، ففعطى العمل ففمة فى مجال الاتناج . وففحقق العدالة بفن الففهد الحققى والجزاء على الففهد . وففمنع أن ففنال القاعدون الكسالى جزاء ما ففستحقونه ، وفهم ففنالونه فى النظام الرأسمالى بمفجرد توظفف أموالهم فى المصارف وففرها ، ففضمنون الربف الحرام وفهم قابعون ، وتضاعف ثرواتهم وتتضخم ، وتفل التوازن الاقنصادى والاجنماعى .

الاسلام والاحتكار :

ان المحتكرين فى العالم يتلقفون - كما قال أحد الكتاب - السحب الهامية فيبعونها للناس قطرة قطرة بالسعر الذى يشاؤون ، ويستولون على خيرات الأرض ثم يوزعونها على الناس ذرة ذرة كما يشتهون .

فالاحتكار يخلق قوة طاغية فى يد المحتكر لا يستمدتها من الجودة والاتقان وحسن الخدمة وكفايتها ، وانما يستمدتها من وجود الامتياز فى يده أو من احتكاره للسلعة فى السوق ، وهذه القوة الطاغية تستخدم دائما ضد مصلحة المستهلكين - أى ضد مصلحة الجماعة - فالمحتكر ابدأ مناع للخير ، معتد أثيم ، مضيق لفضل الله على الناس يقول له الله يوم القيامة « اليوم امنعك فضلى كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » .

لذلك حرم الاسلام الاحتكار ، وندد رسوله الكريم بالمحتكر فقال عليه السلام « لا يحتكر الا خاطيء » « من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه » .

لقد حمل الاسلام على المطففين فى الكيل فقال تعالى « ويل للمطففين » فماذا يكون موقفه من المحتكرين الذين يريدون أن يسلبوا الشعوب كل شىء .. دون أن يعطوها شيئا ??

وإذا كان الاسلام قد غضب لحة يسترقها الطمع وشره الانسان من كفة ميزان ، أو جوف مكيال ، فكم يكون غضبه مستطيرا ، وعقابه شديدا لأولئك الذين يحتكرون خيرات الأرض ، ويأكلون حقوق الشعوب .

الاسلام ومبدأ المصالح المرسله - أى المصالح العامة :

لقد خول الاسلام للدولة ، ان تأخذ من أموال الأغنياء ما تقتضيه حاجة الخزانة العامة للأفناق على مصالح المسلمين العامة ، وما تتطلبه وقاية المجتمع والوطن من نفقات قد تعجز عن سدها الموارد العادية للدولة ،

وما تأخذه الدولة في هذه الحالة ليس من الربح كما قد يتبادر الى الذهن ، ولا هو ضريبة ، أو حق كالزكاة .

وفي هذا المبدأ كما يبدو تقييد لحق الملكية الفردية ، وتحديد يجعله دائما خاضعا لحاجات الدولة العامة ، أى لحاجات الجماعة ، وخاضعا لسلطة الدولة بلا قيد الا قيد الحاجة الاجتماعية ، وفي ظلها تملك الدولة تحقيق التوازن الاقتصادى ، لا عن طريق الضريبة فحسب بل بانتزاع أنصبة من الملكية الفردية دون تعويض أو رد ، لتنفق فى المصالح العامة للجماعة .

الاسلام ومبدأ شيوع الموارد العامة :

وهو ما يسمى بلغة العصر تأمين المرافق العامة . قياسا على شيوع الماء والكلا والنور التى نص عليها الحديث الشريف بوصفها موارد عامة لا يجوز تحديدها بملكية خاصة ، وبوصفها ضرورات حياتية يجب أن تظل مشاعة بين الناس . وقد رتب المذهب المالكى على هذا شيوع الركاز فلا يؤول الى ملكية خاصة .. « فليست فى نظر المالكية المعادن والسوائل فى مجالها — أى مناجمها . — من الأموال المباحة حتى يمتلكها من وجدها واستولى عليها . وانما هى ملك للمسلمين استولوا عليها باستيلائهم على أرضها لأنها منها وثمره من ثمراتها ، ولكنها مع ذلك لا تعد تابعة لها فلا تملك بامتلاكها » .

ولا ريب أن رد الملكية العامة فى هذه المرافق للجماعة فيه قضاء على سبب هام من أسباب فقدان التوازن الاقتصادى فى المجتمع ، لأن هذه الموارد تمثل القسم الأكبر من الثروة العامة تملكه فى النظام الرأسمالى شركات أو أفراد ، وتنشأ من هذه الملكية آثار سيئة فى المجتمع ، كما تصبح سببا من أسباب المنازعات الدولية ومبررات الطغيان والعدوان ، وأساليب الاستعمار .

الاسلام ومبدأ تحريم الترف والاسراف :

ليس الاسلام دين تقشف وشظف وحرمان ، ولكنه دين يبيح لمعتنقيه

ان ينعموا بالحياة ويستمتعوا بطيباتها « كلوا من طيبات ما رزقناكم » « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ » .

غير ان ما ينكره الاسلام على معتنقيه ، تعديهم حدود الاعتدال ، وانغماسهم فى الترف ، لما يورثه الترف من فساد . وتعفن فى كيان الفرد وكيان المجتمع ، فلقد حدثنا القرآن الكريم ان المترفين كانوا عبر التاريخ ، علة انهيار المجتمعات ، وتفهمر الشعوب وانحلالها :

« واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » .

ان الترف الذى تفرق فيه طبقة ، يقابله بالضرورة حرمان ، تعاني شظفة طبقة أخرى ، لأن المترفين يمتصون دماء الجماهير ، ويستغلون جهودها ، ويتصرفون بخيراتها ، ليرضوا شهواتهم ويحققوا رغباتهم ، ولا شك ان مثل هذا السلوك الاجتماعى ، يفقد الجماعة روح السلام والآخاء لأنه يثير أحقاد النفوس ، ويوقظ حزازات الطبقة ، فضلا عما يخلفه هذا الوضع من آثام اجتماعية ، هى ابنة الشهوات القذرة التى يتفانى فى سبيلها المترفون .

من هنا كانت حكمة الاسلام فى تحريم التبذير والاسراف والترف « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين » وذلك حفظا للمجتمع من التفسخ ، والترهل الروحى والميوعة الخلقية .

الاسلام ومبدأ الكنز :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

ذلك أن حبس المال عن التداول ، وكنزه فى الصناديق والخزائن ، يؤدى الى اختلال التوازن المالى والتجارى والاقتصادى ، وبالتالي الى اختلال التوازن الاجتماعى .

وهذا يعنى أن الكنز ليس سلوكا شخصيا مؤاخذا عليه فحسب . بل جريمة اجتماعية ، يجب على الدولة أن تستأصلها بما تضع من تشاريح واقية ، فحسب المال ان كان سببه البخل والثقتير فقد ندد الله سبحانه بالبخلاء والمقتربين « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » وان كان سببه التهرب من الاتفاق فى سبيل الله .. أى فى سبيل حماية المجتمع ومصالحه ، فأحر به أن يحارب ويعاقب .

قد يقول قائل .. ان ما تؤدى زكاته من مال ليس بكنز لأن تحريم الكنز فى مثل هذه الحال ، اقتنات على الحرية الشخصية ، وغريزة الادخار . وجوابنا على ذلك حديث للرسول الأعظم حازم جازم . يقول عليه الصلاة والسلام فيه :

« من جمع دينارا أو درهما أو تبرا أو فضة ، ولا يعده لغريم ، ولا ينفقه فى سبيل الله فهو كنز يكوى به يوم القيامة » .

هذه صورة موجزة عن نظام الاسلام الاقتصادى ، تظهر فيها الخطوط الاشتراكية التى أراد الاسلام لها أن تتوضح ، وأن تستقر . ولننتقل الآن الى الناحية الاجتماعية ، التى أراد الاسلام بها أن يهدم حواجز الطبقات ، وأن يقيم أركان المجتمع الفاضل .

ينغنى عصرنا الحاضر ، وتتغنى معه النظم الاجتماعية ، والاشتراكية منها بوجه خاص ، بما حققته للمواطن من ضمانات ، وللعامل من حماية .

فالى أى حد قدم الاسلام هذه الضمانات ، والى أى حد مجد الطبقة الكادحة ؟ !

ان الأحاديث الشريفة التى رويت عن الرسول الأعظم تشير الى أن أحب الطبقات عند الله ، الطبقة الكادحة : فلقد قال عليه السلام : « ما كسب رجل كسبا أطيب من عمل يده » .

وروى انه ذكر للرسول رجل كثير العبادة لا يعمل . فقال : « من يقوم به . قالوا أخوه : قال أخوه أعبد منه . وقال ان الله يحب العبد المحترف » .

وعن أنس قال : كنا مع النبي في سفر ، فمننا الصائم ومننا المفطر ، قال : فنزلنا منزلا في يوم حار اكثرنا ظلا صاحب الكساء . فمننا من يتقى الشمس بيده . قال فسقط الصوام اعياءا ، وقام المفطرون فضربوا الأبنية ، وسقوا الركاب ، فقال رسول الله : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر . كله » .

ومر النبي صلى الله عليه وسلم على رجل فرأى أصحابه من جلد أحدهم ونشاطه في الاكتساب والارتزاق ما حملهم على الكلام فيه : قالوا : يارسول الله لو كان هذا في سبيل الله ؟ فقال الرسول : ان كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله . وان كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه فيعفها فهو في سبيل الله ، وان كان يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان .

كما ورد عنه قوله : « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له » .

فأى تمجيد للعمل يفوق هذا التمجيد ؟ الا يوازي هذا على الأقل ، التكريم الذي تريده الاشتراكية للعمل والعسال ؟

أما العامل فقد حماه الاسلام وأوصى بالمحافظة على حقه ، وحذر من انتقاصه والافتتات عليه .

فأنت في نظر الاسلام ، حين تحفظ للعامل حقه ، تؤدي لله عبادة .. عبادة ليس السجود والركوع قوامها ، ولا الذكر والاوراد شكلها ، وانما قوامها صيانة الحقوق والعمل بروح الدين ، وأوامر الله .

وبعد .. ما هو موقف الاسلام من مبدأ الضمان الاجتماعي الذي يشكل ركيزة من ركائز الاشتراكية الحديثة ؟ ؟

واليكم قرائى الأعرءاء بعض الأمثلة التى تدل بوضوح على تعلق الاسلام
بببدا الضمان الجماعى والعمل على تحقيقه .

✽ سيق الى عمر بن الخطاب فى عام الرمادة - وهو عام مجاعة -
أعرابى انهم بالسرقه ، ولما سئل الاعرابى عن التهمة اعترف بان الدافع الذى
دفعه اليها قاهر غلاب ، فهو فقير يعيش من عرق جبينه وجنى يديه ، وعبثا
حاول ايجاد عمل لنفسه يقيه وأطفاله شر الجوع .

فمال ابن الخطاب على الصحابة يسألهم رأيهم : فأجمعوا على تطبيق
الحد .

ولكن عمرا ، وهو عبقرية تشريعية خالدة ، ادرك بثاقب بصره الصلة
الوثيقة بين الحاجة الملحة والجريمة ، واتبه الى وظيفة الدولة الأساسية ،
ووجوب تأمينها العمل للجميع ، واعتبر اغفالها لمثل هذا الاعرابى الفقير ،
تقصيرا فى القيام بواجباتها والتزاماتها نحو كل مواطن ، فالتفت الى
الاعرابى ، وفى عينيه دمة أكبر من السماح وأنبل ، وقال له :

اذهب يا أخا العرب . ولا تعد لمثلها .

ثم التفت الى أصحابه قائلا ما معناه :

« اجرؤا عليه من بيت المال الى أن يجد عملا » .

أما قصة هذا الخليفة العظيم مع الأرملة العجوز ، فلا أحد يجهلها أو
يجهل دلالتها الاجتماعية ، وكذلك قصته مع ذلك الشيخ الذمى الذى رآه
يتسول عند باب المسجد فتقدم اليه معتذرا : « يا شيخ .. استخدمناك شابا
وضيعناك شيخا » ثم أمر أن يرتب له من بيت المال ما يكفيه فى شيخوخته ،
ويجنبه ذل السؤال .

ومن هذه الأمثلة يتضح ان الاسلام عرف أنواع الضمان : التى شاعت
فى النظم الاشتراكية الحديثة ، كضمان المرض والعجز وضمان البطالة .

أما الاسلام السياسى فقد أعطى العالم كله أمائيل رائعة فى النبى والتسامى ، والأخوة ، والمساواة والدفاع عن الحريات ، وحب السلام والديمقراطية .

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » .

« انما المؤمنون أخوة » .

« وكونوا عباد الله اخوانا » .

« لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » .

« الانسان أخو الانسان احب أم كره » .

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

بمثل هذه الضمانات كفل الاسلام للفرد طمأننته وحرية وحرماته ، فان اعتدى عليها معتد فالتصاص نصيبه ، أيا كان المعتدى ، لأن الاسلام لم يميز فى قانونه ، ولا فى واقعه التاريخى بين خليفة أو أمير ، وبين فرد من عامة الناس . فمحمد بن عبد الله كان يقيد من نفسه ، وعمر بن الخطاب يسلط ذلك المصرى المظلوم ، وهو ابن الشعب ، فيضرب حاكم مصر وابن الأكرمين . وعلى بن أبى طالب يخاصم نصرانيا سرق درعه الى قاضيه شريح ، فيحكم القاضى ضد الخليفة لأن الخليفة لا يملك بينة على السارق .

فيبتسم الخليفة ويطيع .

بيت الاشتراكية والقومية

✳ ان الهدف الأساسي لجميع المذاهب الاشتراكية هو القضاء تدريجيا ، أو بطريق العنف ، على نظام الملكية الخاصة ، وتنظيمها ، ثم اثناء الانتاج واختيار موارده وطرق توزيعه .

✳ أما القومية فهي مجموعة مندمجة من الأشخاص ، يتفاعلون بنفسية واحدة ، ويندمجون في صفات وخصائص واحدة ، ويخضعون لعواطف وتيارات واحدة ، ويعملون من أجل هدف واحد .

✳ لا تناقض — الآن — بين القومية العربية والاشتراكية وليست الثانية هدفا للأولى ، لأن القومية العربية متحركة وليست جامدة متطورة وليست متأخرة ، وهي بالتالي واقعية في نهجها السياسي ، ومنطقية في كفاحها الاجتماعي « وطبيعة الأحداث اليوم ، والظروف الدولية ،

تعتم عليها أن تتوسل بالاشتراكية من أجل العرب

موضوع الاشتراكية والقومية موضوع شائك لكثرة ما خاض به الباحثون وتعددت فيه آراؤهم ، ولكننا سنحاول قدر المستطاع توضيح نقطة هامة جدا تتمثل بهذا السؤال : هل هناك تناقض بين الاشتراكية والقومية؟

.. أو بكلمة أخرى هل يمكن فصل الاشتراكية عن القومية أو القومية عن الاشتراكية ؟

تعريف الاشتراكية :

يمكننا ان نفسر الاشتراكية بوجه عام على أنها نظريات أو حركات اجتماعية وبالتالي سياسية واقتصادية ، تهدف الى تنظيم مجتمع يقوم على صالح الغالبية من الشعب ، وذلك عن طريق الملكية الجماعية والرقابة الجماعية لعناصر الانتاج والتوزيع . فهدف الاشتراكية اذا هو تحويل الملكية الخاصة لعناصر الانتاج « كالمصانع والمنشآت الكبيرة والأراضي الزراعية والمناجم ونحوها) الى ملكية جماعية ، وتنظيم الانتاج القومى وفقا لخطة مركزية مرسومة تحقق الصالح العام لا صالح طبقات معينة ، وهى تهدف الى ازالة جميع المساوىء الاجتماعية والسياسية التى تمخض عنها النظام الرأسمالى الحر ، وترى أن هدفها الأول هو ازالة هذا النظام والقضاء على ما يترتب عليه ، من تمسك الأفراد بقيم مادية ضارة بالمجتمع وبالصالح العام . أنظمة اشتراكية أخرى :

هذه هى الاشتراكية العلمية غير ان هناك أنظمة أخرى اتخذت من الاشتراكية شكلا لها ، على حين أنها ليست فى الواقع ، الا اتجاهها اصلاحيا تقديما يمثل خطوة الى الامام نحو الهدف الأسمى .

على أن الكثيرين من الكتاب المتأثرين بالفلسفة الماركسية يرون أن سبل الاصلاح الاجتماعى هذه لا تخرج عن كونها مخدرات وقتية تؤخر الوصول الى الهدف وخصوصا اذا كانت الطبقة الرأسمالية الحاكمة هى التى تحتضن هذه الاصلاحات وتقوم بها . وقد أثار هذا الاختلاف فى وجهات النظر جدلا حادا على مر السنين بين مدارس الاشتراكية المختلفة . ففريق يؤيد الاصلاح التدريجى وآخر يؤيد اتباع وسيلة فعالة تقلب النظام

الرأسمالى وتمحو معالم الطبقة الحاكمة وطائفة الملاك على اختلاف أنواعهم .

أهداف الاشتراكية :

أما وقد عرفنا ان للاشتراكية تفسيرات متعددة وطرقا مختلفة فى تحقيق أهدافها فانه يمكننا أن نجعل تلك الأهداف فى قائمة ترشدنا الى الأسس العامة التى تقوم عليها المذاهب الاشتراكية ، والأهداف التى تتضمنها القائمة المذكورة لا تعبر عن برنامج حزب اشتراكى معين ، كما انها لا تشمل النواحي التفصيلية للمذاهب المتبعة . وانما هى قائمة عامة تتضمن رمزا أو شعارا عاما لمفهوم المجتمع الاشتراكى وتتلخص هذه القائمة بما يلى :

أولا - ازالة طبقة الرأسماليين ونفوذهم (٢) شخصية الجماعة فوق شخصية الأفراد - (٣) تغيير نظام الملكية الخاصة بنظام ملكية جباية - (٤) رفع مستوى المعيشة لعامة الشعب من جميع الوجوه - (٥) ازالة نظام الملكية الزراعية والقضاء على الاقطاع - (٦) كفالة الفرص المتكافئة للجميع دون تمييز طبقى - (٧) هيمنة النظام المركزى على الانتاج وادارته طبقا لخطة مرسومة تحقق الرفاهية للجميع على السواء .

ويتضح من هذه القائمة ان الهدف الأساسى العام لجميع المذاهب الاشتراكية هو القضاء اما تدريجيا واما بطريق العنف على نظام الملكية الخاصة ثم تنظيم الانتاج طبقا لخطة مركزية مرسومة ، باعتبار ان الدولة تكون هى المهيمنة على عناصر الانتاج وعلى توزيع الناتج القومى على أفراد الشعب .
الاشتراكية والمذاهب العنصرية :

وقبل أن ننتقل الى تعريف القومية ، يجب أن نشير الى أن بعض الباحثين يقعون فى خطأ جسيم عندما يتوهمون النازية أو الفاشية مذهباً من المذاهب الاشتراكية ، بمجرد ان النظم الفاشية والنازية قد غطيت بتسمية هى الاشتراكية القومية . فكلمة نازية ليست الا اختصارا لعبارة « ناسيونال

سوزيالسبس « الألمانية أى الاشتراكية القومية . ان الفرق شاسع بين الاشتراكية والفاشية أو النازية ، وهو فرق فى العقيدة والأسلوب والفلسفة ونظام الدولة ، بل يمكن القول ان العداة مستحكم أصلا بين النظامين منذ نقطة البدء ، فالفاشية تشل دولة تعبئية تسخر فيها كل الجهود والعوامل والامكانيات لصالح الدولة . وتختصرها كلمة موسولينى : (كل شىء هو الدولة ولا شىء خارج الدولة ولا شىء ضد الدولة) وهى تعتمد على منطق واحد هو القوة الشخصية التى هى مصدر كل قوة أخرى ، أى انها تعتمد على مبدأ الزعيم الديكتاتورى وتأليه ، فليس الزعيم هو الذى يظهر فى الملمات فبنقذ البلاد من خطر داهم ، ولكن الذى يفرض ارادته وسلطته على الأمة بصورة أسوأ من تلك التى عرفتها الأمم أيام الأباطرة والقيصرة المستبدين . أما النازية فترتكز على أسطورة الجنس الآرى المتميز والمؤهل لاستعباد الشعوب الأخرى ، لذلك يهمن أن نشير الى ان تسمية النازية مثلا بالاشتراكية القومية ، ليست الا من قبيل الدجل السياسى والعقائدى وتضليل الناس .

تعريف القومية :

ان أكثر الصيغ الموضوعة لتعريف القومية تثبت أن التفكير النظرى عاجز عن التفرد بمعالجة مركبها ، وهكذا رأينا المفكر الاسبانى (بيمارجال) يجهد منذ ١٨٧٦ للاحاق مبدأ القوميات بالمبدأ الاتحادى ، وجعله رديفا له . وذلك بتحديد القومية بواسطة خصائص ثابتة فهو يقول : اذا كان يمكن لشعب أن يرضى بما ياباه بالعزيزة فيدين عنوة لشعب آخر ، ويصبح تابعاً له ، واذا كان يكفيه ليرضى بهذا المصير أن يحترم نوع حياته ويعطى مساواة فى الفرص والحقوق مع المحتلين الغالبين . وكذلك اذا استطاع أن يعيش أسوة باميركا الشمالية فى سلام وانسجام مع الغاصبين ، وذلك دون أى اندماج طبقى بالمحتل الذى تفصله عنه عوامل الجنس ، واللغة ، والدين ، والشرائع ، فمن البدهى عندئذ أن تكون قاعدة القوميات ومقياسها غير منحصرين لا فى وحدة القوانين ، ولا فى وحدة الدين ، ولا فى وحدة اللغة

ولا فى وحدة الجنس . أما (أورياخ) فيستنع عن تعريف القومية الا بصفتها حدثا نفسيا اجتماعيا . فى حين يرى (كيلتيى) أنها ليست الا شعورا يضاهاى الشعور الدينى ويمكن أن يمارسها الانسان طائعا أو مختارا .

وقد عرفت دائرة المعارف البريطانىة القومية فقالت : (القومية مفهوم يعتوره بعض الغموض ، ولكنه يستعمل فى معناه الدقيق فى الحقوق الأومية ، للدلالة على صفة حالة ثابتة ، تعين التبعية فى داخل الأمة أو الدولة بمعنى أكثر شمولا ، يستعمل فى المناقشات السياسية والأبحاث للدلالة على مجموعة مندمجة موحدة من الأشخاص الذين يحيون فيما بينهم من وحدة الجنس والأرض واللغة وسواها) .

أما (رمزى موير) فلا يفرق بين الوطن والأمة ، ولا يرى فى القومية الا دلالة اجمالية على صفات الوطن وخصائصه ، ويعتبر القومية مجموعة من الناس الذين يشعرون بروابط طبيعية تجمعهم ، وبميول طبيعية تبلغ من القوة ومن الحقيقة انها تتيح لهم الحياة المشتركة وتجعلها ممكنة بل مستحبة ، وتجعلهم لا يرضون أن تفرض عليهم العبودية للشعوب الأخرى .

وأما (شارل ديمورغان) فيرى ان لفظة القومية تظل غامضة المدلول ، فلا تدل الا على مناهج غير دقيقة ، والقواعد التى تقوم عليها مزعزة غير ثابتة ، وذلك ناتج عن كثرة العوامل التى تحاول أن تثبت عليها مرتكراتها .

وهناك من يصنف القومية فى قوميتين : قومية انسانية وقومية لا انسانية والمثل على القومية اللانسانية هو الاستعمار . فالاستعمار شعور قومى « لا انسانى » وسبب لجسيع الثورات القائمة بين الأمم .

وخلاصة القول ان اجماع العلماء فى الفقه قائم على أن عناصر القومية هى : الجنس والأرض واللغة والدين .. ولكننا لا نريد أن نسترسل فى النظريات التى ساقها علماء العرب حول هذا الموضوع بل نود أن نتنقل الى قول كلمة فى القومية العربية .

القومية العربية :

من الصعب جدا تحديد أركان القومية ، فاللغة وحدها لا تصلح أن تكون ركنا من أركانها ، وكذلك الدين لا يصلح وحده أن يكون ركنا من أركانها ، والوحدة الجغرافية والتاريخية والمصالح المشتركة لا تصلح كل منها منفردة فى أن تكون ركنا من أركان القومية . فمهم تتكون القومية اذا ؟

الحقيقة هى أن القومية لا تحدد بأى عامل من هذه العوامل ، وانما تحدد أولا وآخرا بشعور مجموعة من الناس أنهم أبناء قومية واحدة . والدكتور الرزاز يرى انه لم يجتمع لامة من أسس القومية مثل ما اجتمع للأمة العربية ، وأول هذه الأسس وحدة الأرض .. هذه الأرض التى تمتد من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب قطعة واحدة لها جغرافية واحدة ، تتمثل فى كل قطر من أقطارها المجزأة ، وتتلخص فى احتوائها جميعا على صحراء وجبل وسهل .

أما اللغة فواحدة منذ أربعة عشر قرنا وهى ليست ركنا بسيطا من أركان القومية العربية لأنها أشركت العرب جميعا فى حضارة واحدة ، وتنتج عقلى واحد منذ ذلك التاريخ حتى اليوم .

أما الركن الثالث الذى تقوم عليه القومية العربية فهو التاريخ الواحد .. هذا التاريخ الذى حمل صورة واحدة ومر على أدوار واحدة وصنغ هذا الوطن بصبغة واحدة .

وأما الركن الرابع فهو وحده المصالح والمشاكل ، غير أن هذا كله فى رأى الدكتور الرزاز لا يكفى وحده لأجل خلق قومية واحدة ، وانما الذى يكفى حقا هو أن كله قد أنتج شعورا عاما لدى سكان الوطن العربى كله بأنهم ينتمون الى قومية واحدة . وهذا الشعور لا يرجع فى الأصل الى ركن واحد من هذه الأركان التى ذكرناها ، وانما يرجع اليها جميعا

ويعلو عليها جميعا .. يعلو عليها لأنه هو الأصل أما هي فاسباب وعوامل ، ولو اجتمعت كل هذه العوامل معا ولو نتج هذا الشعور بالقومية الواحدة ، لما نتجت قومية عربية واحدة . وهذا الشعور ينتج باللاوعى اكثر من الوعى ، لأن عوامل واحدة هي التى سيطرت على ماضيها وعلى حضارتنا وعلى تراثنا ، وهى التى تشكل حاضرا ، ولأننا نجابه نفس المشاكل بنفس العقلية ونصادف نفس الأمراض ، وتسيرنا نفس التيارات .

ولا شك أن هذه القرون الطويلة التى عاشها الوطن العربى - كجموعة - تسيطر عليه نفس الحضارة ونفس العقلية ، ونفس المعتقدات ونفس الخرافات ، ونفس العادات ونفس الآلام ونفس الآمال ، لم تمض دون أن تترك آثارها الواحدة كذلك ، فى نفس الجيل القائم اليوم فى البلاد العربية .

وأما الركن الخامس فهو الدين ، ولا نريد أن نقلل من أهمية هذا الركن ، فعلى الرغم من أن الدين لا يمكن أن يحدد القوميات ، خصوصا ونحن نعلم أن الدول التى تدين بالمذهب البروتستانتى كثيرة ، وتمثل قوميات مختلفة أشد الاختلاف ، ونعلم ان الدول التى تدين بالمذهب الكاثوليكي كثيرة كذلك وتمثل قوميات مختلفة ، وان الاسلام أيضا يضم قوميات مختلفة أشد الاختلاف ، بينها : الهندى والباكستانى والتركى واليرانى والعربى والأندونيسى ، الا أن الذى لا شك فيه ، هو أن الاسلام قد صبغ حياتنا العقلية طوال ثلاثة عشر قرنا ، كما صبغ تقاليدنا وعاداتنا ، واساطيرنا ومعتقداتنا ، وحياتنا اليومية المعيشية .

فالاسلام فى البلاد العربية لم يكن مجرد دين فحسب ، بل كان تاريخا وحضارة وحياة عقلية ، أثرت فى حياة سكان هذا الوطن على اختلاف اديانهم ، ووجدتهم مسلمين ومسيحيين فى اطار فكرى ومعيشى واحد .

هل تناقض القومية الاشتراكية :

نستطيع دون تردد ، ان نجيب على هذا السؤال بكلمة لا ، فالقومية

تحقيق لميل طبيعي فى البشر يدفعهم للتعاون ، والاشتراكية ميل من البشر لرفع مستواهم وتحسين ظروفهم الحياتية والمساواة فيما بينهم فى الفرص .

ولا يتلغن فى القومية أنها رافقت النظام الرأسمالى ، فأدت الى قيام الحروب لأن هذه القومية قادرة على أن تعايش النظام الاشتراكى ، وتسير فى ركابه . فتمنع الحروب وتنمى روح التعاون .

وأعظم ما يمكن أن يستشهد به من الواقع . مثل الاتحاد السوفياتى نفسه ، الذى هو أقوى مظهر حتى اليوم لتعاليم كارل ماركس ، فهذا الاتحاد لم يقض على القوميات التى انضمت اليه ، ولم يبلغ الحدود التى كانت تحدد بلاد التركستان أو الأرمن ، بل اعترف بها وقواها وانشأ فى كل منها دويلة فائمة بذاتها ، ولكنه الغى طغيان القومية الروسية عليها ، القومية التى كانت سائدة فى العصر القيصرى ، أى انه أراد تحرير القوميات من الأستعباد ، ولكنه لم يرم الى الغاء القوميات نفسها ، بل عمل على تنشيطها ، واحياء تراثها ورعاية فتوتها القومية . ولقد حدثنا صديق زار الاتحاد السوفياتى ، وتجول فى جمهورياته المختلفة فأكد لنا انه لمس لمس اليد الطابع الخاص المميز لكل قومية فى نطاق الاتحاد الواسع .

فأذربيجان مثلا أو تركستان أو اوزبكستان أو ارمينيا ، تتمتع كل منها باستقلالها الخاص ، ولها عاداتها وتقاليدها ولغتها القومية الخاصة بها ، ولا هم للدولة الا تطوير هذه العادات وتلك التقاليد .

الاشتراكية العربية :

اما فى البلاد العربية ، فقد دار جدل كبير وحمى الصراع كثيرا حول ما اذا كانت الاشتراكية يجب أن تواكب المد القومى وتندمج فيه، أو أن تنفصل عنه كمرحلة لاحقة نرقى اليها بعد أن نحقق وحدتنا وتحرر . فهناك فئة تقول بان الاشتراكية يجب الا تكون فى هذه المرحلة التاريخية التى نجتازها هما من هموم نضالنا ، لان هذا النضال يجب ان يتركز بادىء ذى بدء فى تحقيق

الوحدة القومية ، حتى اذا ما تحققت هذه الوحدة تسنى لنا طرد الاستعمار واستئصال نفوذه وتصفية قواعده . ومن ثم . تنفرغ لمعالجة امراضنا الاجتماعية وتنظيم حياتنا الاقتصادية تنظيما تفرضه علينا ضرورات حياتنا الجديدة ومتطلبات اوضاعنا .

الا ان هذه الفئة حين تقول هذا القول تنسى كثيرا من الحقائق ، فهي تنسى أولا أن الوحدة لا يمكن أن تتحقق الا اذا طردنا الاستعمار ، فما دامت للاستعمار جذور في ارضنا ، وما دام للاستعمار سلطان على بلادنا ، فانه لا يمكن الا أن يكون عدو وحدتنا ، وقد تجلت هذه الحقيقة في السنوات الأخيرة ، وخصوصا عندما توحدت مصر وسوريا في جمهورية واحدة ، فلقد جن جنون الاستعمار ، ونشط عملاؤه نشاطا عجيبا غير عادي وأخذت دوائره تعمل ما وسعتها الحيلة للحيلولة دون خطوات توحيدية اخرى ، كما تعمل ما وسعها العمل لمحاربة الجمهورية الفتية الناشئة ، ومحاربة افشائها كمثل مشجع ، وقدوة يجب أن تشخص اليها أبصار الاحرار في دنيا العرب . .

كما تنسى هذه الفئة ثانيا أن التحرر هو طريق الوحدة ، وأن القومية العربية ليست درجة في سلم الارتقاء والتطور ، وانه ليس بينها وبين الانسانية فاصل اساسي وتفاوت في الدرجة والقيمة ، بل انها هي تربة الانسانية ، والمجال الحي لاخصابها ، وأن الانسانية ليست وضعا اجتماعيا أو سياسيا ، بل روح واتجاه ومثل تنبث في تكوين الشعوب والامم ، وتلون حضارتها وتوجه سلوكها واخلاقها ، وهي مرافقة للقومية وليست لاحقة لها .

وهناك تيار قومي آخر هو الأقوى والأسلم ، يؤمن أن القضايا الاقتصادية والاجتماعية لا يمكن أن تفرغ من مضمون القومية .

فالقومية العربية بمضمونها الحديث هي مزيج متفاعل من هموم الانسان العربي كلها ، فالعربي بحاجة الى الحرية ، بحاجة الى الوحدة ،

بحاجة الى العدالة الاجتماعية ، بحاجة الى تحرير اقتصاده من نفوذ الدخيل وسيطرة الغريب ، بحاجة الى تنمية موارده ، واستخلاص خيراته وكنوزه من أيدي غاصبيها وسالبيها ، رهو لا يستطيع أن يفاضل بين هذه الحاجات كلها ، فهي مترابطة متفاعلة ، ولا يستطيع أن يعتبرها مراحل يجب أن يجتازها متداخلة متشابكة ، ولا يستطيع أن يعتبرها مراحل يجب أن يجتازها مرحلة بعد مرحلة ، لانها فى الواقع ليست الا ملامح متعددة لوجه واحد .

النضال القومى العربى والاشتراكية :

ان النضال فى سبيل القومية العربية يعنى فى الوقت نفسه : نضالا فى سبيل التحرر ، ونضالا فى سبيل الوحدة ، ونضالا فى سبيل الاشتراكية .

ان من يدعو الى القومية ويبشر بها ، ويدعو الى محاربة العبودية والاستعمار والتجزئة والظلم الاجتماعى ، يبشر فى الوقت نفسه ويدعو الى مقارعة الفقر والجهل والمرض ، والتفكك والانحراف والرجعية .

يبشر ويدعو الى الانسانية .. لأن قوميتنا ومبررات وجودها تجعلنا لا نستطيع أن نتصور أنها انما وجدت لتخاصم غيرها ، أو لكى تثبت وجودها ازاء قوميات اخرى . أو لكى تدعو التفوق أو حق السيطرة على غيرها أو لتدفع التهمة عن نفسها .

ان القومية العربية تلتقى مع النزعات الانسانية فى انبل امانيتها .. وان ما يتوهمه البعض نزعة غير انسانية تتمثل فى كره العرب للاجنى ، ليست الا نتيجة حتمية للعهود السوداء الطويلة التى عاشوها فى ظل الاستعمار والكبت والعبودية .

لقد طغى الغرب وفرض على البلاد العربية التجزئة ، وحارب امانيتها القومية محاربة لا هوادة فيها ولا رفق ، ولم يكتف بذلك بل اقام فى قلب

الارض العربية دويلة مصطنعة زائفة ، وراح يغذيها ويمدها بالايدي والمال والسلاح ، ويدعمها سياسيا وعسكريا واقتصاديا ، ويحرضها عند كل مناسبة ويزين لها العدوان راميا من وراء ذلك الى تمريغ الكرامة العربية ، واذلال الالباء العربي وتنزيق الاخاء العربي والنيل من القومية العربية .

وكان الغرب من قبل ان يقيم اسرائيل قد اذاق العرب الوان العذاب .. فاحتل ارضهم واغتصب خيراتها وتنعم بثرواتها ، وحصر همه التمدينى فى اشاعة الفقر والجهل والخوف .. لذلك كان طبيعيا ان تنشأ عند العربى عقدة يمكن ان تسمى « عقدة الاجنبى » .

وكلما سنحت له الفرصة للشفاء من هذه العقدة ، سارع الغرب الاستعمارى الى ترسيخها وتأكيدها ، فهو لا يفتأ ينبرى للامانى العربية فيحاربها ويضطهدها ، ويعمل ما وسعه العمل لاجباطها وخنقها والجيلولة دون تجسدها وتحققها ، ولكن هذه العقدة ليست شيئا اصيلا فى الفطرة العربية ، بل الشىء الاصيل فى هذه الفطرة هو الحس الانسانى والانفتاح السرخ على العالم ، والشعور بان هناك رسالة يجب أن يؤديها العربى لخير الانسان أو يهم بأدائها مع الآخرين .

وكذلك فان الشىء الاصيل فى هذه الفطرة هو الكره الشديد للذل والاستعباد وعدم الاستكانة للطغيان .

ميلاد القومية العربية :

لا يمكننا كباحثين أن نحدد للقومية العربية - كفكرة وشعور وحقيقة - يوما - نوضح فيه تاريخ تكونها وصيرورتها عاملا من أهم العوامل الفعالة فى البلاد العربية ، ولكننا نستطيع أن نلاحظ خلال الازمات التى مر بها الشعب العربى عبر تاريخه الطويل ان هذه القومية كانت اثرا من الآثار الخالدة التى واكبت تطور هذا الشعب منذ طفولته الجاهلية حتى شبابه الاسلامى .. الى أن

تعاقبت عليه فيما بعد شتى المحاولات الرامية التي تفتيته وتضييع معالمه .
والتي قام بها الشعوبيون تارة ، والاعداء الخارجيون تارة اخرى .

ومن منا يمكنه ان ينكر ان هذه القومية بدت أكثر ما تكون وضوحا
وجلاء في كافة العصور العربية ، وانها كانت في العصر الجاهلي وفجر
الاسلام . نوعا من الصلات الوجدانية التي تربط بين سكان الجزيرة ، وتشد
اطراف اليمن الى اطراف نجد ، وتربط بين الشواطىء التي تطل على المحيط
الهندي ، وبين الشواطىء التي تطل على البحر الاحمر .

ومن خلال دراسة بسيطة لعادات العرب في هذه الجزيرة شمالها
وجنوبها ، شرقها وغربها نجد ان « العروبة » كانت تسم الجميع بميسمها
الخاص ، فما هو منكر في الشمال منكر في الجنوب ، وما هو متبع في
الشرق متبع في الغرب ، والتقاليد واحدة ، والعبادات واحدة ، والتكوينات
النفسية للشعب واحدة ، والطابع الحياتى واحد ، والمفاهيم الاجتماعية
واحدة ، ولعله من العجيب ان تكون الحدود بين نجد وتهامة مثلا كافية لأن
تفرق بين النطق هنا وهناك ، وان تكون « آل التعريف » مثلا فى احدى
القبائل ، هي « الميم » فى القبائل الأخرى ، من العجيب أن يتم حصول هذا
الفرق فى اللغة الواحدة ، وأن يظهر جليا واضحا كلما تباعدت المسافة بين
القبيلة والقبيلة ، فى حين أنه لا يؤثر هذا نفسه على عروبة أى عربى فى أى
مكان من الجزيرة العربية .

ولعل متسائلا يتسائل : علام كانت تثار الحروب بين القبيلة والقبيلة ؟
ولأى شىء كانت تهدر الدماء بين قوم وقوم ؟ ونحن قد عرفنا القومية بأنها
شعور واحد لجماعة واحدة من الناس . فأين هو ذلك الشعور ؟

والجواب على ذلك هو أن الحياة العربية فى اطوارها الاولى كانت
قبلية بحتة ، ليس فيها أى لون تعاونى غير العنصرية ، وليس فيها أى رابط
مدنى ما خلا « العائلية » وليس فيها أى شكل حضارى ما عدا « العشائرية »

وهذه الصفات المميزة للحياة العربية ، هي معانٍ بدائية للقومية في المجتمعات الناشئة ، وهي نفسها الدلائل الناصعة على وجود القومية العربية كرابطة بين العرب لا على انتفائها ، وبالتالي فهي المراحل « الجبرية » الاضطرارية التي تمر بها القوميات في تكوينها الاول .

لقد اختلف ظهور هذه القومية الى الوجود وطبعته حياة المجتمع العربي بطابع ظاهر ، اختلفا بينا ، وسبب هذا الاختلاف هو ان العرب انطلقوا في اول عهدهم ينقلون الى الدنيا قوميتهم العربية وعقيدتهم الاسلامية ، وكان الواجب الغالب وهو « الاسلام » أبرز أثرا في انطلاقهم . بل انه كان هو الدافع الاول لهذا الانطلاق ، لذلك فقد انصبت كافة جهودهم على الدعوة الاسلامية . وبعبارة أوضح ، يمكننا أن نقول ان العقيدة الاسلامية كانت هي الرباط الأوثق . والصلة الاحكم ، والهدف الاسمى ، الذي يشترك العرب في التفرغ له وخدمته ورفع رايته في كل مكان ، ويمكننا أن نقول ايضا ان الدعوة الاسلامية استغرقت بل استنفذت الطاقة العربية ، وكان من مفاخر هذه الطاقة ان حملت الاسلام الى جهات الدنيا الرابع .

اما القومية فكانت بجانبه شمعة مضيئة ذهبت بنورها الضئيل ، انوار الشمس الفياضة .

اما فيما بعد ذلك من العهود فقد استقر الاسلام في القلوب ، واخذ مكانه على الارضين ، واخذت جذوره الكبرى تتمدد في الاعماق ، وتنتشر هنا وهناك ووثق علاقاته مع العقائد الاخرى ، ونظم مشكلاته معها ، واقام الحدود بينه وبين خصومه ، ووضع الأسس لاقامة مجتمع مثالي متعاون بناء .

ولقد اقيم - باسم الدين - هذا المجتمع فعلا ، وتقننت قوانينه ، وانتظمت شرائعه ، وتحددت حدوده ، وأقيمت أركانه ، وبنيت جدرانه .

واطلت خلال فترة الراحة هذه ، العواطف والمشاعر الاخرى فى صدور الناس : المسلمين ، وبرزت الى الوجود دعوات دينية واحزاب سياسية ، كانت فى حقيقتها متنفسا طبيعيا لمطالب الشعب العربى القومية ، وكانت بعض هذه الاحزاب مغالية فى تطرفها ، وذلك لانها برزت تحت مؤثرات بحثة ، كالشعوبية ، والخوارج ، والقرامطة ، والعلوية وغيرها ، وبالرغم من ذلك فقد ظلت العروبة هى خط الدفاع الثانى بعد الاسلام فى هذه الازمات .

مراحل تكوين القومية :

كل قومية من القوميات تتبلور ، وتأخذ طريقها فى التكوين الفعلى ، وتبرز ملامحها الخاصة بعاملين اساسيين :

١ - العامل الايجابى : كتحمل أعباء رسالة ، أو القيام بمهام حضارة ، أو التمرس بعمل كوني ، تكون من آثاره أن تتغير بعض الصفات الاساسية لفريق من الناس ، أو تتغير خلائقهم ، وأن تنمحي طبقات خاصة من البشر وتبرز الى الوجود طبقات اخرى .

و « الاسلام » يمثل هذا العامل فى تكوين القومية العربية .

٢ - العامل السلبى ، كانطفاء جذور السلطة ، أو الهزيمة المؤثرة فى واحد من الميادين الهامة فى حياة الشعوب ، او انكسار شوكة الشعب ، وانحداره من مستويات القيادة الى حضيض العبودية ، أو مكوثه تحت ظلال احكام خارجه عن ارادته ، متنافية مع طبائعه ، مخالفة لقواعده وأسسسه . أو خضوعه لعوامل القوة والتحكم والسيطرة لشعب آخر أو قوى أخرى .

وحملات الاستعمار التتريّة والمغولية ، والحملات الصليبية ، وسيطرة الدول الغربية وتحكمها فى البلاد العربية .. كل هذه التفاعلات المتفرقة تمثل العامل السلبى فى تكوين القومية العربية .

ولعله من المفيد أن نلاحظ أن العاملين السلبى والايجابى هما متكاملان أى أن كلا منهما يكمل الآخر فى ابراز معالم القوميات ، واعطائها صورة

خاصة ، وشخصية خاصة ، فان العامل السلبي ، كالهزيمة مثلا لا يمكن أن يكون ذا أثر فعال في تكوين قومية ما اذا لم يسبقه عامل ايجابي وعزة المكانة وانفة الخلق ، وكبرياء النفس ، في أى شعب من الشعوب ، بل انه لا بد - على الاصح - من توفر العامل السلبي ، فهو اشد اثرا واعظم خطرا في التكوين القومى .

ومن القضايا المسلم بها أن العروبة تعرضت في تاريخها الطويل بعد سقوط بغداد - اذا اعتبرنا هذه المرحلة بداية التعرض للعوامل السلبية - لصنوف شتى من القهر والاذلال والعبودية ، والتحكم ، واننا لنحيل القارىء العربى الى التاريخ لكى يتبين مدى ما تحملته هذه العروبة من الضغط حتى تكونت لديها امكانية الانفجار .. بالقومية العربية .

القومية العربية والاشتراكية :

لكى تتمكن من تحديد علاقة القوميات وهى كما أسلفنا : مشاعر ، وأمال وأهداف واحدة ، بالنظريات كالأشترائية أو غيرها ، لكى تتمكن من ذلك علينا أن ندرس أولا احتياجات هذه القوميات ، ومشاكلها التدريجية .

ووصفنا المشاكل « بالتدرجية » لأن الشعوب كالأفراد تختلف مشاكلها باختلاف اعمارها الحضارية .

فالشعب البدائى ، تنحصر مشكلته فى تأمين الغذاء الضرورى ، والشعب الآخذ بسهم من المدنية يحاول أن يتغلب على الضائقات ويكون لنفسه ذاتية خاصة ، والشعب المتقدمين ، يواجه مشكلات القضاء على الطبقات فيه ، وتطوير حياته العامة ، وزيادة الدخل وصيانة الاستقلال ، وتأمين الرخاء والصحة والضمان الاجتماعى لكافة افراده .

فمن هذه الناحية يمكننا الآن ان نتساءل : ما هى مشكلات القومية العربية ؟ وهل تغيرت منذ ربع قرن ؟

للجواب على هذا السؤال ينبغي لنا أن نرجع بالذاكرة القهقري .. الى زمن الانتداب الفرنسى فى لبنان وسوريا والانتداب الانكليزى فى فلسطين والعراق ومصر ، وزمن الاحتلال الفرنسى لشمال افريقيا بأكمله .. فى هذا الزمن بالذات كانت القومية العربية موجودة بأجلى وأبهى معانيها ، ولكنها كانت مغللة اليدين ، تواجهها مشاكل كبرى ، وتداهما صعوبات هائلة :

الحدود المصطنعة بين البلاد ، اساليب الحكم المختلفة - كالملكية والجمهورية - والحكومات الانتدابية المؤقتة ، جيوش الاحتلال المسلحة ، العملاء فى كافة الطبقات ، ابتداء بطبقة الحكام و انتهاء بطبقة صغار الموظفين ، الجهل ، الاقطاعية ، الاسر الحاكمة ، الاتكالية ، الفوضى ، واخيرا .. المطامع الجشعة للدول المحتلة .

كل هذه الصعوبات كانت تتراكم على عضد القومية العربية ، وكانت تحول دون ركبها المظفر ، ولكنها ظلت تقاوم هذه الصعوبات واحدة واحدة ، بفضل خلود هذه القومية وقوة احتمالها العجيبة .

لقد استقلت سوريا واستقل لبنان ، واستقل العراق ، واستقلت مصر ، واحتفظت الدول المحتلة لنفسها فى البلاد العربية « بموطىء قدم » اسمته اسرائيل ، ومن ثم شعرت هذه البلاد شعورها الطبيعى بضرورة الالتئام حول الفكرة الواحدة والمصلحة الواحدة ، والهدف الواحد ، فتكونت الجامعة العربية . ولكن ، حين ظهر أن هذه الجامعة تضم النبلاء والصعاليك ، والسادة والعبيد ظهرت عليها بوادر الشلل ، وفقدت قيمتها العملية ، بدليل اختلاق دولة اسرائيل فى عهدها الميمون ، ثم سرت عدوى الاستقلال الى الشمال الافريقى ، فنهضت ليبيا ، وتحررت مراكش ، واستقلت تونس . وتبلورت القومية العربية أكثر من ذى قبل ، واصبحت ضرورة ملحة .. ينادى بها الجميع .

ثم اصبحت المشكلة التي تواجه القومية العربية هي تنظيف الحكم ، فقد طالما مكث في دسوت الحكم صغار ، وطالما تحكّم في الشعب العربي عبيد .

وانتصرت القومية على أدناس الحكم ، وأرجاسه ، وهذا الحال في مراكش وفي تونس ، وانقلب الوضع المهترىء في سوريا وقضى على الملكية الفاسدة في مصر ، واستقام الوضع في السعودية ، وعمت البلاد الاغتيالات السياسة ، وكانت هذه الاغتيالات بداية الطريق لتنظيف دسوت الحكم ..

ثم تطورت مشكلة القومية الي مواجهة العدو المشترك ، ومنازنته ، والثبات بوجهه ، فتغير حكم وحاكمون ، وارتفت ميزانيات الدفاع ، ومصاريّف الحرب في البلاد العربية أرتفاعا ملموسا ، وجرت مبارزات مضحكة ، وكانت الدول العربية تحاول ان تثبت - في كل مرة - ان القومية العربية دائمة العجز ، دائمة الحاجة الي الغير .

ومن هنا برزت القومية لمواجهة مشكلة جديدة . مشكلة توحيد الجهود والتخلص من السيطرة وفك قيود الحصار الاقتصادي ، وهكذا عقدت اتفاقيات اقتصادية جبارة ، اذهلت الدول الغربية وقضت بسهولة على احتكار السلاح ، واختل ميزان القوى .

ثم انتقلت القومية لتحقيق مطلب جديد هو الوحدة . ومطلب آخر هو التسليح ، ومطلب ثالث هو الاستعداد أما مطلبها الاخير الآن فهو تطوير المستوى الاجتماعي .

القومية العربية متحركة :

من هنا نرى ان القومية العربية متحركة وليست جامدة ، وانها متطورة وليست متأخرة ، فهي في كل مرحلة من مراحل حياتها ذات هدف ورسالة ، بدأت رسالاتها واهدافها هكذا بالتدرّج :

١ - الاستقلال ، ٢ - الحكم الصالح ، ٣ - القوة ، ٤ - التحرر ، ٥ -
الوحدة ، ٦ - واخيرا : تطوير المستوى الاجتماعى .

ولقد حققت القومية العربية اهدافها واحدا واحدا بعزم شديد ، ويقين
عظيم ، وستحقق هدفها الاخير بالطريق العلمى الصحيح .. طريق الاشتراكية
الصحيحة .

والدليل على ان القومية العربية متحركة ، هو ان قادتها وروادها الاوائل
لم يكونوا فى البدء يلتزمون خطة واحدة ، وكانت الاحداث التاريخية نفسها
تجعلهم وجها لوجه أمام مطالب محددة ، وتحتم عليهم ان يتخذوا موقفا
معينا ، ففى زمن الاحتلال الاجنبى لم يكن للقومية من مطلب الا الاستقلال
واتمام الجلاء ، ولم يكن العرب فى ذلك الحين يعملون لتحقيق الوحدة ،
ولا يسعون للتسلح ولا يفكرون بالتنوير الاجتماعى ، اذ ان هذه المطالب مع
وجود قوات الاحتلال على الارض العربية ليست فى الواقع الا احلاما بعيدة
المثال ، ومن حسنات القدر ان القومية العربية كانت واقعية فى نهجها السياسى
ومنطقية فى كفاحها الاجتماعى ، فلم تكن تعالج الداء الا بالدواء ولم تكن
تشهر كل اسلحتها لكل معركة . بل كانت تصعد السلم درجة درجة ، وها هى
ذى اليوم تواجه اخطر مراحل وجودها ، وادق فترات حياتها ، فترة النهضة
الاجتماعية والاقتصادية .

الاشتراكية والنهضة العربية :

اصبح من ترداد القول أن نبين أن الشعوب العربية كانت منذ أول
عهدنا فريسة « الطبقات » بالرغم من ان الاسلام - وهو الدين السائد
فى بلاد العرب - قد حارب الطبقيّة محاربة لا هوادة فيها ولا لين ، وبالرغم
من أن الخلق العربى لا يسيغ التعالى ولا يطيق مظاهر العبودية والذل، ولكن
الواقع هو أن نظام الطبقات كان معروفا عند الشعوب العربية ، وهذا النظام
وان لم يتخذ شكل النظام الغربى ، ولم يكن فيه نبلاء ، وسوقة ، واكليروس

وملوك وعبيد ، فانه تلون بلون ديني ، وتحزب احزابا اسلامية بحنة ، ومن المعلوم ان المجتمع العربي في بداية عهده كان عبارة عن طبقة واحدة هي « طبقة المحاربين » وهم المجاهدون في سبيل الله ، ثم انفرط هذا العقد وتوزع الناس الى امراء وسادة وشعوبيين ، والى عرب وعجم وأحرار وموالى والى صناع وتجار وفلاحين .

ولقد كان الصناع والتجار والفلاحون ، الطبقة الوحيدة الباقية منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا ، وهذه الطبقة هي التي تحملت المغارم ، وهي التي بذلت الاضاحي ، وهي التي حافظت على الروابط الخالدة بين ابناء الشعب العربي ، ولا جدال في أن المذاهب الانسانية ، التي تهدف الى الرقي الاجتماعي والاقتصادي ، وضعت كلها هذه الطبقة موضع التجربة ، ولا عجب فانها هي الطبقة الغالبة في سواد الشعب وفيها تكمن أسس النهضة ، وقواعد الانطلاقات الثورية في المجالات السياسية والاقتصادية والحربية والصناعية .

الاشتراكية طريق القومية :

لقد انتهت القومية الآن من معركة الاعداد النفسى ، وحصلت - في اغلب بلادها - على الاستقلال ، ووقفت على قدميها ، تواجه صفعات اعدائها بصفعات اشد قسوة واكثر تنكيلا ، وطبيعة الأحداث اليوم ، ومفاهيم السياسية الحديثة تفرض على القومية العربية أن تسهم في بناء الحضارة ، وأن تمد بساعدها الجبار لتقييم للانسانية طودها الشامخ ، وهي لن تتمكن من التمرس بهذا العمل الضخم ، ولن تستطيع القيام باعباء هذه الرسالة الا اذا تخلصت من الأمراض الأربعة : ١ - الانقسام ، ٢ - السيطرة الخارجية الاقتصادية ، ٣ - الاقطاعية الداخلية ، ٤ - التأخر الصناعي .

ولسنا بحاجة الى بحث وتنقيب كبيرين ، لكى نصل الى النتيجة الحتمية وهي ان الاشتراكية هي السبيل الوحيد ، للقضاء على هذه الآفات الأربع

ولا شيء غير الاشتراكية يحقق الوحدة العربية ، ويقضى على السيطرة الخارجية الاقتصادية ويذيب الاقطاعية الداخلية فى بوتقة من المحبة والاخوة والتسامح ، ويرفع فى سهول البلاد وفى جبالها ، وفى صحاريها ووديانها ، مداخن المصانع الكبرى ، ويدير عجلات المعامل الضخمة التى توطد دعائم الاستقلال . وتمد مرافق البلاد بدماء جديدة ، وتدعم جيش البلاد ، وترفع معنوية الشعب ، وتجعله حقا وصدقا ندا قادرا على الوقوف بوجه الذين كانوا الى زمن قريب يمصون دماؤه ويسرقون ثرواته ويتحكمون فى ارزاقه . ان القومية العربية تنشأ الرخاء الاقتصادى ، ولا شيء يحقق ذلك الا :

« التصنيع » ولا وسيلة لتعميم التصنيع الا وسيلة الاشتراكية ، وتسخير ثروات الشعب من أجل رخاء الشعب وعزته .

وانه لما يملأ القلب فخرا واعتزازا ان تنهض فى الجمهورية العربية المتحدة اسس المئات من المصانع ، وان ترسى القواعد لأضخم المؤسسات الصناعية فى الشرق ، التى ستكون ولا شك المنارات الحديثة ، التى تستهدى بها العروبة طريقها ، وترفع القومية هامتها ، وترسخ اقدامها ، وتعود الى سابق عهدها ، رسالة انسانية نبيلة ، تساهم فى اسعاد البشر ، وفى توفير الرخاء لبنى الانسان .

ولن يمر زمن طويل حتى تحقق الاشتراكية العربية اهدافها ، فى كل مكان ، فتلغى الحواجز المصطنعة ، وتمحى الفوارق المقتعلة ، وتوزع الثروة توزيعا عادلا ويقف العربى فى تطوان ، ليشهد فى ربه النيل قوافل الشباب العربى الناهض ، يبنى امة ويصنع مجدا ، ويصعد الى الجبل اللبنانى ، ليبارك الضواحي الصناعية على ضفاف دجلة والفرات . والشعب العربى واثق كل الثقة ، أن أعداء القومية العربية هم وحدهم الخاسرون ، وأن القومية العربية هى المنتصرة فى النتيجة ، لانها مدمجة بمنطق التاريخ وتطويرته ، ولأنها تحمل فى ذاتها جميع امكانيات الانتصار .

بيت العربية والإسلام

✽ الإسلام في كافة مظاهره : في عقائده ، وعبادته ، ونظمه ومعاملاته لم يكن لطائفة معينة او لجنس خاص ، بل كان يطالب الانسانية كلها بعقيدة واسلوب في العمل ، ولا يفاضل بين الناس الا بمقدار ما يقدمون من اجل العقيدة ، وبنوعية ما يعملون طبقا لهذه العقيدة .

✽ من حظ العرب ان اختيروا لرسالة الاسلام ، ومن حظ العروبة انها كانت احد الوية الاسلام . وهو الذي افصح عن مواهبها وساهم في تاريخها فامتزجت به في امجد ادواره ، والمسلمون في العالم لا يؤلفون قومية واحدة ولا وطننا واحدا .

✽ ان العروبة هي واقعنا الذي لا غنى لنا عنه ، وحاضرنا الذي لا حياة لنا بدونه ، ومستقبلنا الذي لا وجود لنا الا به . مسلمين ومسيحيين ، والذين يخلقون الاكذوبة القائلة بأن الاسلام هو القومية العربية هم المستعمرون .

قد يتخيل البعض ان موضوع العروبة بالذات ، والفصل بينها وبين الاسلام مركب صعب . غير اني قبل كل شيء ، احب ان اصارح القراء الاعزاء بأنني أفخر بعروبتي مثلما أفخر باسلامي . واني لأسمح لنفسي في هذا المقام ، ان اتبنى بعض الفرائد التي نطق بها الخالدون فأقول : لو لم اكن عربيا لتمنيت ان اكون عربيا ، ومن هذه الروح اصوغ عبارات بحثي هذا ، ومن وحيها سأحاول ان اسلط الأضواء حول هذه القومية العزيزة وانفخ في حناياها قبسة من نار الحياة ونورها ، وانفض عن مرآتها الجلية ، بعض غبار

الزمن وبعض لطخات الصدا ، عساها تعود كما بدأت قومية فتية بناة ، تكمن فيها كل عوامل الخلود والبقاء .

فترة حاسمة :

ان التاريخ الآن يمسك قلمه ، ويتطلع نحو البلاد التي تشرق منها الشمس ويرنو يبصره نحو الربوع التي تواكب مغربها ، والتاريخ حينما يمسك بالقلم ويرقب شعبا من الشعوب ، فان هذا الشعب قادم على أخطر مرحلة من مراحل حياته سلبا أو ايجابا .

ونحن العرب في هذا الزمن بالذات يحق لنا أن نتفاءل مسبقا بالمستقبل الضاحك ، ويحق لكم ايها القراء الأعزاء أن تعتبروا انفسكم من الخالدين لأنكم تواكبون فترة خالدة من تاريخ العرب ، هذه الفترة التي سيقراً عنها احفادكم غدا ، وسيقولون : هنيئاً لهم لقد شهدوا يقظة العروبة .

سيقول البعض : اننى اغرق فى التفاؤل ، وسيقول آخرون لقد نطقت عاطفته . ولكنى ادعو هؤلاء واولئك ، فاقول لهم انظروا الى مصر التي كانت الى عهد قريب تربط ماضيها وحاضرها ومستقبلها بالرعامسة والفراعنة وتسير فى ذلك النهج حقبا طويلة من الزمن ، لا ينالها منه الا الضيم والاحتلال والذلة والامتهان ، ثم اذا هى تصحو على فجر دافىء ، تنبع انواره من ذاتها ، من ذات الشعب المصرى ، فتظهر لها حقيقتها العربية الصريحة ، وخيالها الفرعونى الكاذب ، وتفرض بهذه الحقيقة وجودها وارادتها واحترامها على دول الأرض جميعا .

لست أريد من وراء ذلك أن اذهب الى أن العروبة هى التي نصرت ارض الكنانة ، أو انها على الأقل هى التي عاوتتها على اجتياز المحنة ، والتغلب عليها ، ولست اريد من ناحية اخرى ، ان انفى فعالية الوطنية المحلية وصمودها الجبار فى معركة الشعب المصرى . ولكنى اريد ان اقرر حقيقة واحدة ، وهى

ان العروبة فى مصر وفى سورية وفى الأردن وفى لبنان هى المرحلة الناضجة من مراحل تطور الوطنية . وانه فى اللحظة التى يتفاهم فيها العرب جميعهم على انهم عقد واحد ، يشع جمالا أخاذا ، ويشكل فى مجموعته ثروة هائلة ، اما فى افراده فليسوا سوى بضعة احجار كريمة ، ليس لها قيمة العقد المنظوم ولا قدره . اجل فى الوقت الذى يتعارف فيه العرب على اختلاف دولهم انهم عقد ثمين واحد ، وان رابطة هذا العقد هى العروبة فقد عرفوا الطريق الذى يمتد بهم نحو الغاية التى يشدها جميع شعوب العالم ، وهى الرخاء والعزة والسيادة والاستقلال .

بين العروبة والاسلام :

وانه لمن المؤسف حقا ، ان ينفخ بعض ذوى الأغراض من ابواق الاستعمار نغما طائفا دنيئا ، لا غاية له ولا هدف ، الا تفريق الكلمة وتصديع الصفوف والاطاحة بالوحدة الوطنية التى تجمع شتات فئات هذا الوطن ، حول الميثاق الوطنى المعقود عام ١٩٤٣ والذى اعتنقه لبنان الرسمى بمجرد دخوله الجامعة العربية وابرامه ميثاقها وتوقيعه على بروتوكول الاسكندرية .

هذه النعمة المقيتة ، ارتفعت بها بعض الأصوات الناشزة ، ردا على الموقف الذى وقفه الشعب اللبنانى من قضية العدوان الآثم على مصر ، بقصد عزل لبنان عن المجموعة العربية ، وشل كل نشاط يمكن ان يقدمه لخدمة القضية الكبرى التى يناضل من اجلها العرب .

وقد دفعتنى هذه النعمة الى اختيار هذا البحث بالذات ، لأنها كانت تهدف الى الايهام بان العروبة تعنى الاسلام . وانه لا يمكن ابدا الفصل بين العروبة ، كقومية والاسلام كدين ، فهما متلازمان كل التلازم ، مندماج كل الاندماج .

ومن المؤسف أيضا ان يقع فى هذه المزالق - عن حسن نية طبعا - بعض قادة الفكر فى هذا البلد ، فيخلطون بذلك مع الأسف بين العروبة

والاسلام ، ويزعمون ان مؤسس الاسلام هو مؤسس العروبة ، متجاهلين بذلك كل وقائع التاريخ وكل الحقائق العلمية التى هم ولا شك حريصون عليها حرصهم على معرفة الحقيقة .

وسنحاول الآن فى هذا البحث ان نجلو هذه النقطة الدقيقة الخطيرة ، التى يتمسك بها بعضهم عن سوء نية مدفوعا بعوامل كثيرة لا تشرف فى كل حال ، والتى ينادى بها البعض الآخر عن حسن نية ، دون ان يتحروا بذلك الدقة العلمية والتاريخية .

ولسنا فى هذا المقام نقف موقف المدافع عن العروبة ، لاعتقادنا انها ليست بحاجة الى دفاعنا ، ولا لنرد على فرد معين ، بل لنعرض بعض الحقائق التاريخية التى تثبت ان العروبة ليست فعلا هى الاسلام ، وانه وان كان من امجاد العروبة انها كانت جندى الاسلام الأول . فمن مظاهر قيامها بنفسها ، ان الاسلام — فى بعض مناسكه الدينية — قرر عاداتها وتقاليدها ، وأقرها حتى انها فى النهاية حملت اسمه ، وهى من أفعال العرب الأولين .

ثم ان الباحث فى هذا الموضوع يصادفه منذ البداية سؤال واحد : ما هو الاسلام ؟ وما هى العروبة ؟ وما هى الصلة بينهما ؟ وهل كان الاسلام كدين سماوى لا يحمل على الاعتقاد بأنه ظاهر الرعاية للعرب دون غيرهم من الأمم ؟

الاسلام للانسانيه :

لننظر الى الاسلام نظرة عاجلة ، ولنحاول أن نستخلص منه بعض الصور الناطقة بانه لم يكن فى يوم من الأيام دين العرب فقط لاعتبار واحد بسيط ، وهو ان الله حسب المفهوم الاسلامى هو رب العالمين ، وان محسدا حسب التعبير القرآنى رسول للناس كافة .

والاسلام فى كافة مظاهره : فى عقائده وعباداته ، فى نظمه ومعاملاته ، لم يكن انانيا قط ، ولم يحارب الأديان التى سبقته ، بل دعاها اليه للمجادلة

والبحث بروح من الفهم العميق ، والسماح الرائع ، وسعة الصدر ، وحسن الخلق فقال : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » ، وكان ذلك بعد ان أقر لجميع الناس بحرية العقيدة « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم » .

وبعد ان وضع القاعدة المثلى للسلوك العقائدى الاسلامى الذى لا يؤمن بالاكراه ويقدم العقل النير « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وبعد ان أكد ان محمدا ليس الا نبيا يوحى اليه ، كما أوحى الى عيسى من قبله ، وكما أوحى الى موسى من قبلهما ، وكما أوحى الى داود ونوح قبل أولئك جميعا فقال تعالى « انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » .

ولو ان الاسلام أقر للعرب بشيء من الفضل أو السابقة ، لرفع قدرهم وأجل شأنهم ، وأظهر ذلك للملأ . ولكنه جعلهم مسؤولين عن الفكرة وتنفيذها كغيرهم من الناس ، وانه ليس لواحد من بنى البشر أن يفضل أخاه أبدا الا بالتقوى (لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى) وذكر العربى بالذات . ثم انه من ناحية أخرى فرض على العامة اطاعة أولياء الأمر ، دون النظر الى عربيتهم أو الى أعجميتهم ، ودون التفريق بين أولوانهم وأجناسهم فقال : (اسمعوا وأطيعوا . ولو ولى عليكم عبد حبشى رأسه كزبيبة) .

ثم ان قريشا وهى القبيلة التى كان منها النبى ، وشرفت بنبوته فى أعين النسايبين العرب ، وبلغت شأوا بعيدا ، قريش هذه فضل بعض الفقهاء شرف العلم على نبالتها حينما بحثوا قضايا الكفاءة بين الزوجين .

فأين هى — قرائى الأعراب — آثار تدليل الاسلام للعرب ، حتى يتجرأ أناس على القول بأن الاسلام هو العروبة ؟

اسمحوا لى أن أكون صريحا الى أبعد حدود الصراحة ، وان أسير فى الشوط حتى النهاية . فهناك بعض الأسئلة تحرق شفاه الناس ولا يبدونها . وهناك بعض المخاوف تدمدم فى صدورهم ولا يظهرونها ، وأنا منذ نشأت عدو التخفى والخوف ، والرياء والحذر ، اذا كانت بضاعة رائجة بين الأخ وأخيه والشقيق وشقيقه .

العروبة لا تخيف أحدا :

لنتصارع ، فالعالم بأسره يعلم أن العروبة لا تخيف ، وليس منها أدنى خطر على جميع العقائد ، اسلامية ومسيحية ويهودية .

قلت اسلامية ، لأن فريقا من المسلمين يعتبر العروبة خطرا على الاسلام كاعتبار بعض المسيحيين لها ، فيجب محاربتها والقضاء عليها فى نظر الفريقين جميعا .

ان العروبة لا تخيف .. لأنها وطنية سامية وقومية هادية ، تجمع كل الملل والنحل .. فقيم الحيرة اذن ، وعلام الريبة والشك ؟ أمن الاسلام ، أمن ذلك الدين الحنيف العادل المترفع ؟

ان الذين يحاربون العروبة يريدون لها — قوة واقتدارا — ان تكون فى صف الاسلام ، حتى تتكون ضدها جبهة من تجار الأديان المتحالفة ، ولأن نعتها بالاسلام ، وجعلها بديلا عنه وجعله بديلا عنها يخدم هؤلاء التجار ، ويوفر عليهم عناء كسيرها فى اذكاء نار الطائفية وبث سمومها ، وبالرغم من اننا بصدد البرهنة على ان العروبة قومية من القوميات التى كثر فيها المسلمون وليست الاسلام نفسه ، بالرغم من ذلك ، فاننا سندفع بايجاز شديد عن هذا الدين بعض ما اتهم به معنقدوه ، دون ان نجافى عنصر الموضوع ، لأن العروبة قرينة الاسلام وشريكته فى هذا الاتهام .

المساجد والصوامع في القرآن الكريم :

لنستمع معا الى قول الله تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله » ألا نلاحظ فيه انه يعتبر صوامع الرهبان شقيقة لمساجد أتباع الاسلام ؟ ثم ألم يكن الاسلام نبيا حينما قدم معابد النصارى واليهود على مساجد المسلمين ؟ ان سلوكه فى هذه الناحية سلوك مفعم بالتسامح والاكبار والاجلال لأهل الكتب السماوية من اليهود والنصارى . فقد حظر على المسلمين ان يستخدموا معابد الذميين لأداء الصلاة حتى لا يدعى المسلمون فيما يعد حقا عليها . وما زال يتخايل أمام ناظرى ظل الخليفة العادل عمر بن الخطاب ، وهو قائم يصلى خارج كنيسة بيت المقدس ، لا لشيء الا ليؤكد للمسلمين عسليا احترام المسلم لأخيه المسيحى احتراما يقوم على محبته وتقديره للكنيسة .

أما ما فعله ذلك الصحابى الصادق أبو بكر رضى الله عنه ، وما أوصى به جنده حين سيرهم فى سبيل الله ، من اجتناب البغى والعدوان ، والامتناع عن قتل الأطفال والنساء والشيوخ ، وحينما نهاهم عن التعرض بقليل أو كثير للرهبان المنتشرين فى صوامعهم فى البلاد ، كل ذلك أصبح مشهورا بين الناس ومعروفا ، ولست أجد فائدة من تكراره فى هذا المقام .

الملوك المنحرفون :

لقد احترم ديننا أتباع الأديان الأخرى احتراما لا يكتفه حزب سياسى فى القرن العشرين لأنصار حزب سياسى آخر ، واذا كانت الظروف السوداء قد جعلت على بعض العروش المسماة على الاسلام ملوكا يحملون أسماء اسلامية ، ويحكمون بغير ما أنزل الله ، كما حدث فى الأزمنة الأخيرة للاسلام ، فليست هذه جريمة الدين بل جريمة رجاله ، وليست مبررا للحملة عليه بل على القائمين بأمره .

ولكى نظهر مدى هذا الاحترام الذى يضمه الاسلام لسائر أديان
الديانات الأخرى ، علينا ان نلجأ الى القرآن الكريم وهو أصدق دليل
عندنا ، وفيه ما يدل بوضوح على اعتباره التقديسى لروح الموسوية الصحيحة
اذ يقول « وتنت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا » وفيه
ما يطمئن المسيحيين صراحة بأنه يجعل المسيحية الربانية اياما اجلال ، ويكرم
نبيها اياما تكريم اذ يقول له « يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من
الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا » .

رسالة الاسلام وحقيقة القومية :

اظننى استطعت الايضاح عن موقف الرسالة الاسلامية من اتباع
الرسالات الأخرى ، واستطعت وضع النقاط على الحروف ، حول بعض
الالتباسات التى كانت تثار ، وتثور من ورائها الشكوك عن ارتباط الاسلام
بالعروبة ، واننى لأعتقد أنه امكننى الاثبات ، بأن الأول هو دين سماوى
لا تهمة القوميات ولا الشخصيات بقدر ما يهيمه العمل والاخلاص ، وان
الأخيرة هى قومية قائمة بذاتها ، لها تاريخها وحضارتها ومدنيتها السابقة
على الاسلام وعلى المسيحية أيضا . وانها تتميز بالمعنى التاريخى بخطوط
كبرى ، وشخصية منفردة جديرة بالبحث والدراسة .

بقى الآن ان تثبت للعروبة تاريخها المنفصل عن الاسلام ، وحضارتها
الفردية ذات الطابع العربى الخاص ، وانها كان لها رجالها وأمجادها ، وكانت
لها حقبة من الزمن لعبت فيها الدور الأساسى الأول ، فى سياسة هذه البلاد ،
وحكمها وشؤونها . وقبل ان نخوض هذا البحث التاريخى الصرف ، نحب
ان نوجه الأنظار الى بعض الملاحظات الهامة التى تعبر عن وجهة نظرنا تعبيراً
صادقاً بدون غموض .

أولاً : على الذين يؤمنون بأن الاسلام هو العروبة ان يؤمنوا بالمقابل
بأن المسيحية هى الانكليزية أو الفرنسية أو الايطالية أو الاسبانية .

ثانيا : من حظ العرب ان آمنوا برسالة محمد وحملوها الى جميع الانحاء ، واذا كان اتسابهم اليه ، يجعلهم بدلا عنه ، فلماذا تكون الاندونوسية بديلته أيضا ؟

وفى هذه المناسبة تحضرنى حادثة طريفة ، كلما مرت بمخيلتى ازددت اعجابا بالعروبة ، وتعلقا بها ، وازددت ايمانا بنأنا هنا فى لبناننا الحبيب ، حملة رسالتها قبل غيرنا من الشعوب العربية . والحادثة هى : أن أول مجمع لغوى عقد فى الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ، وجرى فيه التساؤل الذى يحيرنا الآن ، وهو : هل نحن عرب قبل ان نكون مسلمين أم نحن مسلمون قبل أن نكون عربا ؟ .

وجوابا على هذا التساؤل تبارى مندوبو الدول العربية فى رسم الحلول وترتيب النتائج .

أما مندوب لبنان وكان يومها الشيخ عبد الرحمن سلام أمين سر الفتوى اذ ذلك فقد ارتجل هذين البيتين :

قال عبد العزيز قولاً حكيماً والصواب الذى يقول الامام
نحن قبل الاسلام عرب ولكن نحن بعد الاسلام عرب كرام

حضارة العرب قبل الاسلام :

والآن لنرجع الى التاريخ القديم نقلب صفحاته بامعان وتجرد ، بحثاً عن حضارة العروبة ومدنيتها .

هذه واحة خصبة تمتد فى الطرف الشمالى من الصحراء العربية يكتنفها دجلة والفرات ، وسهول حلب وحمص وانطاكية ، وواحة دمشق وسهول حوران .

انها تدمر عاصمة أدينة والزباء ، عاصمة الدولة الفتية التى لعبت دورها الخالد فى التاريخ .

لقد تنبه الرومان الى الموقع الاستراتيجى الهام لهذه الواحة ، فأرادوا ان يستولوا عليها نحو عام ٣٦ قبل الميلاد . فهاجمها قائدهم مرقس انطونيوس عندما كان عائدا من حرب الملوك الارشكيين .

وما ان وصلت أنباء هذا الغزو الى مسامع التدمريين العرب ، حتى هبوا لملاقاة القائد الرومانى الغازى دفاعا عن مدينتهم ، ونشبت بين الفريقين معركة من أعنف المعارك قدر فيها للتدمريين ان ينتصروا وان يحطموا النير الأجنبى .

ولكن الرومانيين لم ييأسوا فهم يعرفون أهمية المركز التجارى والحربى لمدينة تدمر ، ويعرفون ان الاستيلاء عليها ضرورة من ضرورات البقاء لامبراطوريتهم ، فعمدوا الى فرض الحصار الاقتصادى عليها ، وانبروا يعتدون على القوافل التدمرية ، وينهبونها بعد ما صمد فى وجههم جيشها الباسل .

وظلت تدمر على صمودها نحو من قرن ، ولكنها اضطرت امام الضيق الاقتصادى الناتج عن الحصار ، وتوالى غارات الرومان على تجارتها ، اضطرت الى الارتقاء فى حضن الامبراطورية .

ولكن ارتقاءها هذا لم يفقدها طابعها الحضارى ، ولم يوقف نمو مدينتها مما ساعدها بعد قليل على الانتفاض والثورة فى وجه الفاتحين .

وكان ذلك فى عهد اذنية الأول ابن السميدع وهو من قبيلة عربية كبيرة من القبائل المعروفة عند الفرنج باسم SARRASINS وهى محرفة من لفظ « الشرقيين » .

لقد كان أذنية يتصرف فى صباه كما يقول المؤرخ (ن. بوليون) تصرف الرجل ، وكان يصطاد السباع والفهود والذبية وغيرها من الوحوش الضارية . وكان يحتمل فى سهولة ويسر الحر اللاهب والبرد القارس فى

السهول والجبال والغابات . كما كان يتحمل متاعب هذا الصيد فى رضى وسرور ، وبفضل هذه الرياضة المفضلة استطاع الا يرى أوار القيط ، واهباء الزوابع فى معارك فارس غير أمر عادى لا يعبأ به ولا يؤبه له .

لقد كان أول عمل قام به أذينة العربى خلع سلطة الرومان ، وتحرير تدمر ، والتحالف مع سابور ملك فارس الذى كان خطره يقترب يومئذ من بلاد الشمال .

غير ان سابور منى فى احدى معاركه مع الرومان باندحار هائل ، حملة على التراجع الى الفرات ثم الى فارس ، ومكن للخطر الرومانى ان يقترب من الشرق ومن تدمر بالذات ، فأدرك أذينة ان الرومان سيسحقون جيشه ، وسيستقموون منه جزء ثورته عليهم ، وادرك ان سابور حليفه لا يستطيع تقديم المعونة اليه بعد اندحاره الفظيع فى بر الشام امام جحافل الرومان ، فلجأ الى ذكائه وسعة حيلته كيلا يعرض تدمر لاستعمار رومانى جديد .

وقرر سلوك نهج سياسى جديد ينقذ مملكته ، فأعلن ولاءه للرومان ، وذهب لمحاربة سابور باسمهم ، ثم ارتد الى تدمر وقبع فيها يتربص الفرص ويتحينها للسيطرة على جميع البلدان العربية وطرد النفوذيين : الرومانى والفارسى معا .

ومرت رومة بعهد الانحطاط والضعف ، وكان سابور قد استعاد قواه فشن على الرومان حربا ثأرية كتب له فيها النصر .

وفكر أذينة فى موقفه تجاه هذا الوضع ، واحسن ان سابور يبيت له الشر فحاول ان يقترب اليه تجنباً للاصطدام به ، الا ان سابور داخله الغرور والصلف فكان لا مفر لأذينة من ان يحاربه .

وقدر للبطل العربى ان يدحر سابورا وجيشه ، وان يحطم كبرياءه وعنجهيته ، بما أوتيته من قوة البأس والذكاء ومهارة التصميم .

وانكفأ أذينة لمقاتلة الرومان فسار الى حمص ، وحاصر الجيوش الرومانية فيها وتسكن من فتح المدينة وقتل قائدها (كياتوس) .

وتم لأذينة اخراج الرومان من شمالي سورية ، وتحقق على يده قيام مملكة عربية مستقلة .

وكان أول ما سعى اليه مؤسس هذه المملكة ، هو القضاء على الاضطهاد الذي كان نصارى الشام فى انطاكية وحمص ودمشق وقيسارية عرضة له ، فأطلق لهم الحرية الدينية وأوعز الى الوثنيين - وكان هو وثنيا - أوعز اليهم الا يتعرضوا للنصارى فى قضاء فروض عبادتهم ، وابعاح لهم اقامة البيع والكنائس .

ولكن أذنيه لم يفسح له لتزدهر الحضارة العربية التدمرية على يديه ، فكثيرا ما يكون المصلحون الثائرون أول الضحايا لثورتهم . وهكذا قدر لأذينة ، فلقد غدر به أحد أبناء عمه ، بينما كان يتوجه الى حمص لقتال القائد الرومانى هرقلوس .

قد يقول قائل : ان الطموح لا الاحساس العربى هو الذى دفع أذينة لأن يبنى ملكا له .. فنجيب : ان عنصر الطموح لا يمكن نكرانه حقا ، ولكن الاحساس القومى كان هو أهم الدوافع التى حملت أذينة على التمرد والوقوف فى وجه أقوى دول عصره ، بل الدولتين اللتين تسيطران يومذاك على العالم وأعنى بهما الفرس والرومان .

فلقد حز فى نفس هذا البطل ان يظل قومه مطايا اطماع الفاتحين ، وان تظل بلادهم موطنًا لسنابك خيلهم ، فأثر المغامرة ونذر نفسه لتحريرهم من العبودية ، وجاءت من بعده زوجته الزباء أو زينب أو زنوبيا كما أطلق عليها الرومان واليونان ، جاءت من بعده تكمل رسالته وتعمل على ازدهار المملكة .

فلقد تولت الحكم فى سنة ٢٦٧ ميلادية ، بعد أن ورث ابنها البكر « هبة اللات » لقب ملك الملوك ومصلح الشرق .. وأخذت تنظم شؤون

ملكنتها وتوجه اهتمامها — جل اهتمامها — الى الجيش ، وتشرف بنفسها على التمرينات العسكرية ، وتشاطر جندها شطف العيش وخشونة الحياة ، وتعد نفسها لتحمل أعباء القيادة .

وكان النفوذ الروماني بعد وفاة أذينة قد انبسط من جديد على المملكة التدمرية فراحت الزباء ترقب الأحداث ، حتى اذا دبت الفوضى في الامبراطورية الرومانية أعلنت ابنها « هبة اللات » قنصلا ثم امبراطورا .

وكانت الخطوة الثانية التي أقدمت عليها هي ضرب نقود باسم ابنها الامبراطور ووضعها في التداول ، وفي عام ٢٧٢ ميلادية قامت بهجوم صاعق على مصر فخلصتها من قبضة الرومان ، بعد ان سيرت لهذه الغاية جيشا مؤلفا من سبعين ألف مقاتل يقوده (عبدوس) أو زيد كما يذكر الأستاذ كرد على في كتابه خطط الشام .

وما كادت أنباء النصر تصل الى تدمر ، حتى سارعت الزباء فأعلنت نفسها قيصرة و « هبة اللات » قيصرا ، وضربت نقودا جديدة تحمل صورتها ولقبها الجديد كما تحمل صورة « هبة اللات » ولقبه .

وسار عبدوس الظافر الى آسيا الصغرى ، فبلغ أنقرة وسواحل البوسفور ، وكانت غاية زنوبيا من هذه الحملة الجديدة ، تحرير آسية من النفوذ الروماني ، ولكن جيشها عاد دون قتال عندما لاحظ تصميم الآسيويين على ابقاء النفوذ الروماني .

وكان من الطبيعي ان يحقد الرومان على تدمر ، وان يحاولوا هدم سلطانها ، فحشدوا قواهم ، وهاجسوا مصر ، فأعادوا سلطانهم اليها رغم مقاومة المصريين الضارية . عندئذ رأت زنوبيا ان تركز الدفاع عن ملكنتها ، ولكن (أورليان) امبراطور الرومان ، وهو الذي يعرف بسالة التدمريين ، لجأ الى الحيلة والخديعة فتظاهر بالانكسار في احدى المعارك ورجع عن انطاكية ، ثم أمر جنوده بنصب كمين وراء تلال المدينة وبساتينها .

وظن التدمريون ان الرومان قد هزموا فعلا ، فاندفعوا ليقعوا بالكمين ويمنوا بخسارة فادحة ، رغم براعة عبدوس فى الانسحاب الى حمص ليجعل منها خطا دفاعيا جديدا عن المملكة .

وفى سهل حمص رأت الزباء ان كفة الرومان العسكرية هى الراجحة فجمعت مجلس قيادة الحرب للتشاور ، وسرعان ما تقرر التراجع الى تدمر واتخاذها حصنا أخيرا .

وحاصر أورليان تدمر وطال حصاره لها ، وعز على الزباء ان تستسلم فامتطت هيجينا وانطلقت قاصدة بلاد فارس لتطلب نجدة سابور ، ولكن جنود الرومان أدركوها وهى تعبر الفرات فقبضوا عليها وأعادوها أسيرة .

وعظم عليها ان تنهار مملكتها ، فأعلنت وهى فى اسرها الصوم عن الطعام الى ان فاضت روحها ، فانطوت بموتها صفحة من صفحات النضال العربى ، وانهارت تدمر عاصمة الثورة على الاستعمار فى القرن الثالث الميلادى ، وحاضرة العاهلين العربيين العظميين أذينة والزباء .

الغساسنة وبنو تغلب ومملكة سبأ :

تعالوا معى نسير عبر التاريخ .. نودع تدمر وحضارتها ، لننشر صفحة أخرى من صفحات المجد العربى قبل الاسلام .

ها نحن أولاء .. فى مشارف الشام بين مضارب الغساسنة .. فهلموا نستنطق التاريخ عن أمجاد هؤلاء السمر الأشاوس ، الذين بنوا ملكا ، وأقاموا حضارة ، قبل انبثاق الفجر الاسلامى .

ان الحديث عن الحضارة النامية فى مراتع هؤلاء العرب حديث محبب ، ولكنه أثير أيضا عن قبيلة أخرى مسيحية عربية ، هى قبيلة بنى تغلب التى اشتركت فى معارك عربية خالدة ، واشتهر منها شاعر كبير هو الأحنبل . وأجدنى الآن مدفوعا لتلمس معالم حضارة عربية أخرى فى الصحراء العربية

السمراء ، وفى اليمن التى أطلق عليها الفرنجة منذ القدم لقب : العربية السعيدة .

تعتبر بلاد العرب الجنوبية من أقدم مراكز الحضارة عند الأمم السامية ، وكان موقع اليمن الجغرافى من أهم الأسباب التى أدت الى نشوء حضارة مترفة فى ديارها ، فسبقت بذلك المناطق الشمالية من الجزيرة العربية « وتتمتع هذه المنطقة بخصب وافر فى جبالها العالية وهضابها المخضرة ، وسهولها الفسيحة ، كما تتمتع بحكم وجودها على طريق الهند ، بموقع تجارى بالغ الأهمية ، وقد ساعد هذان العاملان على ازدهارها ونمو الحضارة فيها ، ولقد أطلق الدكتور حتى على عرب اليمن اسم فينيقى البحر الجنوبى ، لأنهم رسموا خرائط هذا البحر ، وسيطروا على رياحه ، وتحكموا فى تجارته فى الألف والخمسمائة سنة قبل المسيح .

وكانت لليمنيين طرق تجارية أخرى فى البر من حضرموت الى قارب ، ومنها الى مكة والبتراء ، ثم الى سورية ومصر والعراق . وكانت لغة سكان تلك البلاد اللغة الحسيرية ، أى اللهجة العربية الجنوبية ، الى زمن يقرب من الفتح العربى ، حين اخذت اللهجات الشمالية تتمتع بقوة وعزة ، بينما أخذت اللهجات الجنوبية تتدهور « وكان ذلك لفقدان بلاد اليمن حريتها واستقلالها ، فتدهورت حضارتها وانحطت ، فاستلزم ذلك انحطاط اللهجات الجنوبية ، وتلاشت لتحل محلها العربية الشمالية التى كانت تتمتع بدفق من الشباب والفتوة .

أما الدول العربية التى تداولت الأرض اليمنية ، فأقدمها الدولة المعينية التى ازدهرت فى اليمن بعد سنة ٦٥٠ قبل الميلاد .

وقد سيطرت فى نهضتها على معظم أقسام الجزيرة العربية ، وما تزال معين العاصمة التى تحمل اسم الدولة المعينية الكبرى حتى اليوم ، كما ان معان المصرية تدلنا على امتداد تلك الدولة الى أطراف البلدان المجاورة للجزيرة .

ولقد استطاع المؤرخ « مولر » ان يكتشف أسماء ستة وعشرين ملكا من ملوك دولة المعنيين اليمنية .

وكان السبائيون ورثة المعنيين ، قد بسطوا نفوذهم وسيطرتهم على جنوبى الجزيرة العربية وحكموها ، وكانت عاصمتهم قديما (مراوح) ثم أصبحت مدينة مأرب المشهورة بسدها العظيم . وكانت هذه المدينة ملتقى الطرق التجارية بين الشرق والغرب .

المملكة الحميرية :

وبعد سنة ١٥٥ قبل الميلاد ، يبدأ عهد دولة عربية جديدة ، هى المملكة الحميرية الأولى امتد بقاءها حتى سنة ٣٠٠ بعد المسيح وكانت عاصمتها (ظفار) ويروى لنا التاريخ قصة القائد الرومانى (اليوس غالوس) الذى حاول غزو اليمن على رأس جيش رومانى لأهبيتها التجارية ، ولكنه لم يوفق فى غزوه وعاد مع بقايا جيشه المنهزم الى مصر .

فى هذه الحقبة من التاريخ ، عبر العرب أرض كوش ، ووضعوا فيها أسس المملكة الحبشية ، فكان لهم الفضل الأول فى انشاء تلك الحضارة الحبشية . وبنى ملوك حمير ، تخليدا لاسمهم قصر رغدان ، الذى بقى قائما نحو (٦٠٠) سنة وشاهده الهمدانى ووصف روعته ، وما حوى فى بنائه من آيات الفن والزخرف .

حضارة اليمن :

وفى القرن الأول بعد المسيح ، ينحرف التاريخ انحرافا خطيرا ، يؤدى فى النهاية الى تلاشى سيطرة كل من اليمن وتدمر والبتراء ، وذلك ان العرب اليمنيين وكانهم كما قلنا يسيطرون على طرق التجارة بين الشرق والغرب ، ويفرضون رسوم المرور على البضائع ، ويجبون منتجات بلادهم بأسعار باهظة . وكان عرب البتراء وتدمر والعراق ، يتحكمون من جانبهم بالتجارة

الشرقية الى ان سقطت مصر بيد الرومان ، فأعاد بطليوس الثانى فتح القنال القديمة بين النيل والبحر الأحمر ، وتمكن الرومان بساعدة الأبحاش من الوصول الى المحيط الهندى ، فتم بذلك القضاء على السيطرة التجارية لليمن والبتراء وتدمر . وبدأ عهد الانحطاط فى اليمن مع قيام الدولة الحميرية الثالثة ، التى تدخل المسيحية واليهودية فى أيامها بتلك الاصقاع ، فاستبدل الحكم وينقسم عرب اليمن الى يهود ونصارى ، ويتآمر « ذو نواس » آخر ملوك خمير على نصارى اليمن الغربى ، لخضوعهم لنفوذ الحبشة ، فيدبر لهم مذبحة فى عام ٥٣٣ م ويتنادى النصارى الى الثأر ، ويعبر سبعون ألفا من نصارى الحبشة بأمر من امبراطور بيزنطية أرض اليمن ، ليتحكموا بأهلها جميعا من نصارى ويهود بعد ان زعموا انهم جاءوا لحماية النصارى والثأر لهم .

وتجدر الملاحظة هنا ان هذا الأسلوب الاستعمارى ، ظل الى يومنا هذا وسيلة بارعة من وسائل الدول الكبرى لتفريق الشعوب الصغيرة واستعمارها وفى هذه الفترة يتهدم سد مأرب العظيم على يدى القائد الحبشى (أبرهة) ويتعذر ترميمه ، ويهجر بنو غسان واللخميون اليمن الى حوران والحيرة ، وكذلك يفعل الكثيرون من بنى طى والتنوخين وكندة .. وكثير غيرهم من عرب اليمن .

وبقيت اليمن مستعمرة حبشية الى ان قام (سيف بن ذى يزن) يريد تحريرها بتعاونه مع الفرس ، ولكن آمال القائد العربى أصيبت بالفشل حتى وجد ان الفرس ينوون الحلول مكان الجيش الحبشى فى استعمار اليمن .

وهكذا استبدلت اليمن استعمارا حبشيا باستعمار فارسى ، ظل مسيطرا الى أن ظهر عرب الشمال فى القرن السابع بعد المسيح فى احدى الحملات التى شنها اتباع الدين العربى الجديد .

نهاية المطاف :

هذه ملامح من حضارة العرب قبل الاسلام ، وليس باستطاعة أى مؤرخ مهما كانت مقاصده وغاياته ، ان يشوه حضارة اليبس الزاهرة ، أو ان يتجاهل الأنباط ، حلقة الاتصال بين تدمر وغزة ، وخليج فارس والبحر الأحمر واليبس ، أو اهمال حضارة سلع وتدمر والمناذرة والغساسنة .

وهكذا نسير فى معارج التاريخ ، فنجد المسيحية تدخل الجزيرة فينتصر الكثيرون من أبناءها ، ثم تنشق الأرض العربية عن الرسالة المحمدية ، فيكون الاسلام دين القومية العربية وابنا عبقرها لها .

موجات الاستعمار والبلاد العربية :

كيف لا يكون العربى عربياً لأنه اعتنق المسيحية أو الاسلام ؟ وما علاقة الدين — كرسالة سماوية انسانية لكل الناس — بالقومية المختصة بشعب من الشعوب ؟ لقد كانت العروبة ثم كانت المسيحية ، وكان بعدها الاسلام فعاشت هاتان الديانتان السماويتان فى الأرض العربية شقيقتين متجاورتين متجانستين . فمن أين جاء هذا الوهم الشائع بأن العروبة تعنى الاسلام ؟ وبأن المسيحيين فى هذا الشرق العربى غرباء ، ليس لهم من أمجاد هذه الأمة العريقة ما للمسلمين ؟

انه الاستعمار .. الاستعمار الذى يحاول دائماً ان يندس فى صفوفنا ليفرق ويسود ، الاستعمار التركى الذى جاء من قبل ليحتضن المسلمين كما يدعى ، فاذا به نير ثقيل يتقل أكتاف المسلمين قبل المسيحيين ، واذا بالثورة التحريرية تنطلق من صفوف كل المواطنين الشرفاء ، دون النظر الى دياناتهم المختلفة ، واذا بأعواد المشانق ينصبها السفاح التركى جمال ، لقادة الحركة التحريرية مسلمين ومسيحيين ، واذا بالدماء المهرقة تنصهر فى وحدة وطنية رائعة ، هى شىء من هذا القبس الحى المتوثب فى روح كل فرد . انه الشعور

القومى ، الشعور بالوطنية الصحيحة الصادقة التى تلف الجميع فى النكبات
وتصهرهم ببوتقة الوحدة الوطنية .

ويمضى الاستعمار التركى غير مأسوف عليه ، وتنشق هواء الحرية ملء
رئائنا ولكن هذه الحرية ، ما تلبث ان تختنق بين قبضتى عملاق جديد من
عسائقة الاستعمار ، انه الاستعمار الفرنسى وزميله الانكليزى الذى جاء هذه
المررة ليحمى المسيحيين من المسلمين . وكانت وسيلته هذه المرة تجزئة الوطن
الواحد الى أوطان وكيانات ، كان بعضها من نصيب فرنسا ، والبعض الآخر
لقمة سائغة للانكليز .

ولكن الاستعمار أثبت مرة أخرى انه لا يحمل اليمن والخير والسعادة
لفريق من المواطنين دون الآخر ، غير انه يحمل لهم جميعا الذل والمكر ،
والحقد والاستغلال وشروط العبودية . فاذا بالنضال من أجل الحرية يتجدد
قويا عنيفا عند جميع المواطنين مرة أخرى تحت راية الوطنية الحققة ، التى
يتسع صدرها لجميع الديانات السماوية الكريمة .

هكذا شاء الاستعمار ان يقنع الاقلية المسيحية فى الوطن العربى ، أن
وحدة هذه الأقطار هى وحدة دينية فحسب ، يجمعها الاسلام ، وتاريخ
الاسلام ، ورسالة الاسلام ولكن الفئات الواعية كانت تلقم هذا الاستعمار
حجرا كلما طاب له ان يردد هذه النعمة ليمنص خير أرضنا ويسرق رخاءها .

ليعلم الاستعمار :

ألا فليظمن الاستعمار أيا كان نوعه ، على سلامة المواطن ، أى مواطن
فى هذه الديار ، وليفهم ان المسيحيين من هذه الأمة عرب قبل غيرهم ، لهم
ما لغيرهم من أمجاد العروبة . ساهموا فى بناء عزاها ، وانهمرت دماء شهدائهم
مع دماء اخوانهم المسلمين ، كلما تعرضت هذه البلاد لجور الطغاة الغزاة
ونكباتهم .

وليعلم الاستعمار الذي ينصب نفسه وصيا وحاميا لحقوق الشعوب الصغيرة ، ليعلم اننا جسيما بخير ما دام هو بعيدا عنا .

لقد كان هذا السبب من أهم الأسباب فى اشاعة هذا الوهم المغرض ، ولكنه لم يكن الوحيد ، فلقد فصلتنا عهود الاستعمار البغيضة عن التاريخ العربى ، فجهلناه أو جهله معظمنا جهلا فاضحا . وساعد على ذلك الثقافة الأجنبية التى لم تكن تلقننا العلوم فحسب ، بل تلقننا معها ان نسى تاريخنا ، وان نهمل تراث أجدادنا الحضارى ، ليكون جيلنا جيلا منقطع الصلة بساقيه ، يعيش حاضره الأسود القاتم بألسا محطما ، فيندفع الى احضان الحضارة الغربية التى تقدم اليه على أطباق من ذهب ، فيكون بذلك قد فقد عروبتة الأصلية ، وأصبح عضوا مشلولوا غير ذى فاعلية فى جسم العالم الكبير .

كانت هذه الأسباب تتراكم على الشرق العربى ، فى فترة سوداء من تاريخه ، فى عصر انحطاط تروج فيه الشائعات ، وتسود فيه المغالطات ، وبعض الناس ، والواعون منهم يحاربون اخطارا أكبر من هذه ، والبعض الآخر يتخبط فى محيط من الجهل طاغ ، ونحن واثقون فى هذه الفترة التحريرية التى تحياها بلادنا ، ان الضباب سينقشع ، وان الحقائق ستبدو جلية واضحة حين يكتب تاريخنا من جديد ، وحين نقضى نهائيا على هذا الدخيل الكريه .. الاستعمار ، وحين نقضى على اطماعه وأذنباه ومظاياه فى بلادنا .

دور الاسلام فى الوطن العربى :

بقى علينا ان نوضح مكان الاسلام فى الوطن العربى :

ان القومية كما نعلم هى هذه الأرض التى تنمو عليها مواهب الأمة من آداب وفنون وعلوم وحضارة . والاسلام فى تاريخ العروبة ثورة تحريرية نضالية وانتفاضة جريئة لهذه الأمة ، كشفت عن غيوم الجاهلية ، وحررت

الشعب العربي فى سورية ولبنان وفلسطين والأردن ومصر من نير الرومان ،
كما حررت العراق من نير الفرس .

انه انقلاب جذرى فى حياة العرب وفى نفوسهم ، أهلهم لقيادة العالم
التقديم لتحقيق مثل قيمة ، وحمل رسالة الخير والحق والعدالة لكل الناس .

فالإسلام اذن فى حقيقته يفصح عن مواهب العروبة وعبقريتها ، ساهم
فى تاريخها وحمل رسالتها فامتزج بها فى أمجد أدوارها .. ومع هذا فالإسلام
ليس العروبة ، والقضية العربية ليست قضية اسلامية لأن فى العرب مسلمين
وغير مسلمين . ولأن القومية غير الدين .. والا لوجب ان يؤلف المسلمون
فى العالم كله قومية واحدة ووطننا واحدا ، وان يؤلف المسيحيون بدورهم
قومية واحدة ووطننا واحدا ، وهذا مغاير للحقيقة والواقع .

ولماذا نذهب بعيدا نسبر أغوار التاريخ ، ونكشف حقائقه ونحن نعيش
واقعا جليا يوضح القضية من جميع جوانبها .

فليست تركية المسلمة من ألد أعداء القومية العربية ؟

الا تحتضن هذه الدولة المسلمة اسرائيل المسخ ؟ وتشارك معها ومع
بريطانيا وفرنسا فى التآمر ضد القومية العربية المتوثبة ؟ والى تنتفض من
جديد لتستعيد مركزها فى العالم ، ولتحمل رسالتها فى الخير والسلام بعد
ان فرض عليها الاستعمار هذه الهجعة الطويلة .

آفلا نجد تركيا المسلمة ، تظل من وراء كل مؤامرة أجنبية تأكيد لهذه
الأمة التى تنشده السيادة والحرية ، فاذا بالأرض التركية مسرح حيكته عليه
وتحاك عليه مؤامرات الاستعمار ، واذا بالمسؤولين هناك أقطاب فى تديرها ؟

وايران والباكستان المسلمتان ، الا تحالفان مستعمرينا وناهبي خيراتنا
دون ان تردهما رابطة الدين .

رسالة المواطن العربي :

فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا وحياتنا ، وفى هذه الأيام العصيبة التى تسربها دنيا العرب وهى تحارب الاستعمار بكل ما تملك من بأس وقوة ، وتنطلق الى الغد المشرق ، وتناضل الخسونة والجواسيس وتجار الوطنية ، فتخوضها معركة حياة أو موت ، معركة شعب أصيل ذى حضارة وأمجاد ، معركة شعب يتطلع الى الماضى يستمد منه عزما وإيأسا وتصميما ، وتصهره آلام الحاضر فيحاول ان يخلق من كل ذلك مستقبلا جديرا بأمتة ، وان يتابع الرسالة الخيرة التى بشر بها أجداده .

فى هذه الأيام يجدر بكل مواطن ان يعى هذه الحقيقة ، وهى ان رسالة القومية العربية الجديدة ، هى رسالة القومية التى لا تعرف العصبية أو انحداد ، رسالة القومية المنفتحة ، التى تود أن تعيش مع باقى القوميات فى سلام وأمان ، لا استعمار ولا استغلال ولا عبودية .

هذه القومية التى تضمنا مسيحيين ومسلمين ، ساهمنا جميعا فى بناء صرح حضارتها ، وامترجت دماؤنا جميعا فى معاركها ، انها ارث لكل منا ، لم يورثنا اياها نبي من أنبياء الله ، ولا حملنا اياها دين من الأديان ، بل كوتتها لنا طبيعة حياتنا وسر ارتباطنا .. أرضنا هذه التى نجيا من خيراتها ، وتنشق نسماتها ، ونحرث سهولها ووديانها ، ونسكن جبالها وشطآنها .

أجل ان العروبة هى واقعنا الذى لا غنى لنا عنه ، وحاضرنا الذى لا حياة لنا بدونه ، ومستقبلنا الذى لا وجود لنا الا به .

نداء ونصيحة :

وليعلم الضائعون وراء سراب الاستعمار ، ان كل كيان فى الأوطان العربية لا يستند الى عنصر الوطنية العربية ، هو كيان اعرج أبتر ، وان كل دولة تبنى أركانها لهدف دينى ، وعلى طريقة طائفية كاسرائيل مثلا ، هى دولة

فأشلة ، تحيها الظروف وتميتها الظروف ، وتقويها المناسبات وتفنيها المناسبات ، وانها تحمل طبيعة فنائها في ذاتها ، وسر زوالها بتكوينها .

ونصيحة أخيرة الى المبهورين بدعاية السوء ، الوجلين من العروبة نصيحة الى هؤلاء ألا تغرهم بهارج الاستعمار ، فسرعان ما يقرب لهم فخر المجن ، ويتحول منهم اليهم اذا اقتضت ظروفه ومصالحه . وليعلموا ان كانوا غيارى على أبناء وطنهم ان العروبة اسمى درجات الوطنية وأرقى مراقبها .

ان معركتنا مع الاستعمار هي المعركة الفاصلة معركة المصير الى الأجيال القادمة ومبدأنا الذي لا يتحول هو : نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد .

المرأة والحرية

* لدى المرأة من الامكانيات الطبيعية ما يندر توفره عند الرجل ، فاذا اختص هو بخصلة العنف فقد اختصت هي بخصلة العطف ، واذا كان واجبه الكسب .. فطبيعتها الارضاع ، واذا اعتز وتباهى بأنه والد ، فانها هي الوالدة ، واذا صعر خده وشمخ بأنفه بأنه أب ، فيكفيها فخرا انها أم ، واذا امتاز بالقوة العضلية فقد امتازت بالقوة النفسية .

* فى القرن السابع للميلاد تندى قطر من صحراء العقائد ، واطلت الشريعة الاسلامية كالطل على المرأة وتعدتها بالعناية والرعاية ، وما من نظام تحت السماء أنصف المرأة وناصرها وحررها مثل النظام الاسلامى .

* لقد أعطيت المرأة فى الاسلام من الحقوق والامتيازات ما يجعل المطالبة بالمساواة بينها وبين الرجل ، وهما من الأوهام ، وفرضت على الرجل من الواجبات والأعباء ما يجعله هو فى موقف لا يحسد عليه .

تعتبر مشكلة حرية المرأة من أخطر مشاكلنا الاجتماعية ، وتحتل حيزا كبيرا من تفكير ساستنا وحكامنا وذوى رأى فىنا . ولا غرو فى ذلك ، فالمرأة نصف الأمة ، ومن أهم العوامل الفعالة فى بناء المجتمع وخدمة الانسانية .

ومن المؤسف ان يكون تاريخ الأمة العربية فى العصور القديمة قد عبس للمرأة ، وتولى عنها ولم يتسم لها ، وانما حفلت تلکم العصور بامتهانها ، ودأبت على ظلمها ، وسارت على سنة اذلالها وعدم الاحتفاء بها ، شأن كل أمة لا تزال فى دور الطفولة .

المرأة الجاهلية :

هذه المرأة ، التى تشغل اليوم نصف العالم ، وتسلک ناصية التاريخ ، كانت فى العصور القديمة للأمة العربية ، سقطا من المتاع ، ولونا من ألوان الزينة . ، ونوعا جديدا من أليف الحيوان . ولم يعترف العرب الأولون لها بأبده صفاتها : صفة الانسانية . فاشتركوا فى الزوجات مثلسا كانوا يشتركون فى الأموال والمتاع ، حسبما روى الجغرافى اليونانى (سترايون) .

وأوضح دليل على ذلك ، بقاء بعض التقاليد الشاذة فى الزواج عندهم ، حتى ظهور الاسلام ، كزواج الرهط : وهو ان يتزوج رجال عديدون امرأة واحدة . وزواج الاستبضاع : وهو ان يدفع الرجل زوجته الى عظيم أو أمير ليستولدها رغبة فى نجابة الولد . ونكاح السفاح : وهو الزنى المعروف . ونكاح البدل : وهو ان يستبدل كل من الرجلين حليلته بحليمة الآخر .. الى غير ذلك من الأنكحة الشاذة الفاسدة ، مما يعتبر دليلا واضحا على ظلامية الحياة الأولى عند العرب .

ثم دار الفلك دورته ، ومشت الأيام خطواتها ، وقام العرب بنهضة عظيمة ، تشبه نهضتهم فى صدر الاسلام — مع الفارق — وسكبت ديمة هذه النهضة شآبيب الرحمة على المرأة ، وتلفتت الأمة العربية على تلکم الزهرة الممتحنة ، وتنسست عبيرها ومدت اليها يد العناية ، لا يد الاستعباد ، ولحظتها بعين الرعاية لا بعين السخط ، وأصاب المرأة العربية من هذه النهضة نصيب وفير .

المرأة والشرائع القديمة :

منذ نيف وأربعة آلاف سنة ، قبل ميلاد السيد المسيح ، جاءت شريعة حمورابي العربى ، وهو الذى يعتبر فى نظر فقهاء القرن العشرين أول المشترعين . جاءت ومنحت المرأة العربية رغم اعترافها بسيادة الرجل كثيرا من الحقوق ، واسبغت عليها وابلا من النعم ، لم تكن تتوفر لها من قبل ، اذ حددت سلطة الرجل العائلية فى الأحوال الشخصية ، وعاملت المرأة بشيء من العدل والرحمة فى باقى الحقوق العامة : فأباح لها مزاوله الشؤون التجارية والأعمال الزراعية ، والانتظام فى سلك الكهانة ، فضلا عن أشغالها المنزلية .

كيف تساوى المرأة الرجل ؟

وهكذا أضحت المرأة فى هذه الناحية ندا للرجل ، ومساوية له تقريبا . ولا غرابة فى ذلك ، فهى نصف الأمة ، ولديها من الامكانيات الطبيعية ، ما يندر توفره عند الرجل ، فاذا اختص الرجل بخصلة العنف ، فقد اختصت المرأة بخلة العطف ، واذا كان واجبه الكسب ، فطبيعتها الارضاع ، واذا اعتز وتباهى بأنه والد ، فانها هى الوالدة ، واذا صعر بخده وشمخ أنه بأنه أب ، فيكفيها فخرا أنها أم ، واذا امتاز بالقوة العضلية فقد امتازت بالقوة النفسية .

هذا ما تسلحت به المرأة العربية .. وما مكنها يومذاك من مشاركة الرجل فى الحقلين المادى والاجتماعى ، بل زاحمته فى الميدان السياسى وزحزحته عن أرائك الحكم .

والتاريخ اعدل شاهد وأصدق رواية . فقبل ميلاد السيد المسيح ببضعة قرون تلقى شلمنصر الثانى الولاء والاحترام من ملكتين عربيتين ، ونصب اسر حدوك على أحد العروش أميرة عربية ، والسطر الذهبى الذى سجل فى تاريخ اليمن ، انما سطرته يد امرأة ، والسعادة التى رفلت بها الأرض السعيدة

انما هى من صنع امرأة ، انها بلقيس التى ورثت عن أبيها عرش اليمن لثلاثين عاما تقريبا قبل المسيح ، وكانت مثال الحاكم العادل النزيه ، أحسنت فى الادارة أشد الاحسان وابدعت فى التنظيم ما شاء الابداع ، ووطدت دعائم أمرها ، ووثقت عرى ملكها ، وخلفت وراءها كثيرا من الرجال فى الميادين التى يزعمون انها وقف عليهم وملك لهم ، ووصفها الهدهد لسليمان حسبما ورد فى القرآن : (فقال احطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ نبأ يقين . انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم) .

وكان فى ركابها حينما سارت الى سليمان مائة ألف من الفرسان ، وكان من أمرها معه ، ما سجله التاريخ وايدته السماء . فقد استبدلت بدين أبيها دين الله ، وقوضت فى البلاد عمد الفوضى ، وأقامت بنيان النظام وظللتها بظل من الأمن والسلام .

ومع ذلك لم تنفرد بلقيس فى موكب الفخار ، ولم تتسهم وحدها القمة بين النساء العربيات ، بل شاركتها فى ذلك ملكة عربية أخرى لها عظمتها وقدرتها ، تلك هى زنوبيا ملكة تدمر ، التى لم تعوزها صلابة الرأى ولا مضاء العزيمة ، ولم تنقصها قوة البأس ولا متانة الشكيمة ، بل قامت تثبت للتاريخ ان المرأة التى تهز بيمنها سرير الطفل ، تستطيع أن تهز بيسراها العروش والممالك ، انتضت زنوبيا البرهان نفسه الذى يظن الرجل به نفسه فوق المرأة ، انتضت السلاح وأخضعت كثيرا من الممالك ، واقتحمت كثيرا من البلاد ، واقتحمت كثيرا من المعازل .

ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال ، فبعد ان تبوأَت المرأة العربية مكانا باذخا ، وبلغت عزا شامخا فى أيام العرب البائدة من عمالقة العراق ، وفراعنة مصر ، وعاد وثمود فى اليمن ، انقلبت الى ما بدأت به من البداوة والجهل ، وخنست عن مكانها الرفيع الى ما كانت عليه من الذل والضعفة ، وحيل بينها وبين أهدافها ، وقلبت لها الأيام ظهر المجن ، فغلبت على أمرها ، وتحكم

الرجال بها وتخليوها متعة للرجل ، وزعوها دمية من دمي اللهو ، أو وسيلة من وسائل التسلية ، وليت غيهم وقف عند ذلك ، وليت طغيانهم لم يتجاوز حده ، فانهم تجرأوا على الله تعالى وسلبوا المرأة انسانيتها ، بل سلبوها الحياة ، وفي هذا يقول مناظر امرىء القيس معبرا عن شعور قومه ، مفصحا عن وجهة نظرهم :

فان تسألونى بالنساء فأننى بصير بأدواء النساء طيب
اذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له فى ودهسن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه وشرخ شباب عندهن عجب

كره البنات :

ولمنزلة المرأة الوضيعة ، كانوا فى الجاهلية يستعضون من ولادة البنات بل كانوا يستنثرون اذا ولدت لهم بنت ، حياء من القوم ، كأنهم ارتكبوا عارا أو اقترفوا جريمة ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك عنهم بقوله :

(واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به . أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون !) .

الحجاب :

أما الحجاب بمعنى ستر الوجه — فقد كان قائما عند كثير من قبائل العرب فى الجاهلية ، واخبارهم تؤيد وجوبه ، واشعارهم لم تخل من التصريح بوجوده ، وفى ذلك يقول الربيع بن زياد العبسى فى رثاء مالك بن زهير :

من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نههار
يجد النساء جواسرا يندبنه يلطن أوجههن بالاسحار
قد كن يخبئن الوجوه تسترا فاليوم حين برزن للأنظار
يضربن حر وجوههن على فتى عف الشمائل طيب الأخبار

على ان الرجال كانوا يتعففون عن مغازلة النساء ، فلا يحاولون متى خرجن ان يتبعوهن بأنظارهن ، بل كانوا يفاخرون بغض النظر عنهن : ولثلل هذه الحالة أشار عنترة بقوله :

وأغضن طرفى ان بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأوها

تعدد الزوجات :

أما من حيث تعدد الزوجات فى الجاهلية ، فلم يكن عند العرب حد محدود فى التزوج . وقد يتزوج الرجل امرأة أبية بعد طلاقها أو موت أبية ، ومن فعل ذلك عسر بن أمية بن شسس ، ولما كان الزواج عندهم سهلا لكثرة أنواعه ، فقد كان الطلاق مثله فى السهولة ، ولكن على غير حد وبدون نظام يكفل حق المرأة ، بل كان الرجل يضارها فى الطلاق ما شاء له ان يضارها ، واذا مات لم يكن لها نصيب الارث ، وكيف ترث وهى فى نظرهم من جملة المتروكات . وكان كل ما يصنعه الرجل بها ، انها ان كانت جميلة تزوجها ، وان كانت غير ذلك حبسها حتى تموت فيرثها .

هذه هى حال المرأة الجاهلية ، مبتذلة مستهنة ، لا يقام لها وزن ولا يعترف لها بحق ، كانت تشتري وتباع كالسلعة والمتاع ، وكانت تورث ولا ترث ، وتسلك ولا تملك ، كما كانت مرهقة بظلم الرجل ينتقص من انسانيتها ، ويتصرف بأموالها وممتلكاتها .

واختلف الناس أيام الجاهلية فيما اذا كانت المرأة انسانا أو غير انسان ، وفى كونها تلقن الدين ، وتصح منها العبادة أم لا ، وفى كونها تدخل الجنة وملكوت السماء أم لا ، ولم يكن هذا حالها عند العرب فى جاهليتهم فقط ، بل كان كذلك فى أوروبا يوم كانت أوروبا تعيش فى ظلام دامس ، ويوم قرر أحد المجامع بروما ان المرأة مخلوق شرير يجب ان يعامل معاملة الحيوان . ولعل فرنسا هى أول دولة فى العالم أيام الجاهلية ، عملت على

انصاف المرأة ، حيث قررت بعد ولادة محمد وقبيل بعثته ان المرأة انسان ،
الا انها خلقت لخدمة الرجل .

انقاذ المرأة :

وفى وسط هذا النظام الجاهلى الملىء بالمآسى المضطرب النظام ، تلفتت
المرأة العربية التى هاضها الألم ، وبهظها الاضطهاد واثخنها الذل ، الى
ما يحقق كامل انسانيتها ويقيها من عثرتها ويتبنى فكرة مساواتها ، فاذا
بمحمد بن عبد الله ترسله القدرة الى هذا العالم المضطرب ، ليحد من
طغيانه ، ويخفف من غلوائه وهيجانه ، فقرر للمرأة على الفور ، كامل انسانيتها
وحريتها ، وساواها بالرجل فى النفس والجاه والكرامة ، وبذلك رفع عنها
تلکم الآصار ، وحررها من قيود الذل والاستكانة والهوان ، ونزل قوله
تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن
لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وعاشروهن بالمعروف
فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) .

معطيات الاسلام للمرأة :

كفل الاسلام للمرأة العربية حرية التصرف ، وابع لها ان تملك العقار
المنقول ، وان تهب وتشتري وتبيع ، وأن توصى وتقاضى كما تريد ، على حين
ان الدول الكبرى وصاحبات الدعوة الى حرية الشعوب ، لم تتوصل الى
ما وصل اليه الاسلام فيما يتعلق بحقوق المرأة وانصافها الا فى مستهل القرن
العشرين .

أعطى الاسلام المرأة كل الحقوق التى أعطاها للرجل ، مدنية كانت أم
سياسية فلها حق العمل بمزاولة كل مهنة شريفة تعجبها ، ولها حق الانتخاب ،
والتمثيل النيابى والبلدى والادارى ولها ان تتولى مناصب القضاء .

نساء مسلمات :

ففى عصر الفاطميين تبوأَت شجرة الدر عرش مصر ، وكانت أم المقتدر رئيسة لمحكمة الاستئناف ببغداد . وقصة أم المقتدر قصة المرأة الطموح التى أولدتها الأقدار ملكا على عرش بغداد ، وكان التاج على رأس وليدها بيد ان السلطة كانت طوع يدها ، وتاريخ هذه الأم الملكة هو تاريخ المرأة المكافحة ، التى حاربت بطانة الشر بأعمال الخير ، وحاشية السوء بمكر الداهية ، وثبتت الملك تحت قدمى طفل ، ما عرف عرش بغداد أشد هوانا منه ، مدة خمس وعشرين سنة . فضلا عن ركاكته واسفاهه ، فضلا عن مجونه وعبثه ، فضلا عن خفته وهزاله .

ولقد سطرت هذه المرأة مع الزمن قصة الطيبة والدهاء ، والغدر والوفاء ، وقصة السياسة فى أحلك لياليها وأظلم عهودها .. عهد المقتدر . أم المقتدر ! وما ادراك ما أم المقتدر ؟ انها جارية من ذوات الدل والجمال ، ومن أولئك اللواتى تجتمع لهن رجاحة العقل وصباحة الوجه ، ويدخلن التاريخ من قصور العظماء . فيهن ظرف وكمال ، يقرضن الشعر ويروين الطرائف ، ضالعات بالآداب عالمت بالقوانين ، يجسعن الى طريف الخبر معسول القول ، ويضفن الى ذلك دراية بأصول وسحر الغناء .

أم المقتدر .. وأى خليفة ؟ انه الصبى المقتدر ، لها فى كل أمر شأن ، ولها فى كل قضية حكم وميزان ، ترعى الأمور صغائرهما وجلائلها ، وأى غرابة فى ذلك ، فالخليفة نفسه صغيرها ووليدها ، ترفع من تشاء وتضع من تشاء من أمور هذه الدولة البعيدة الأطراف .

باشارة من بناتها المخضب ، أو رنوة من طرفها الكحيل ، ينزل وال من الولاية ، وينصب قاض من القضاة ، ويقوم قائم ببغداد ويقعد قاعدها اذا رغبت السيدة (شغب) أم المقتدر .

من ذا الذى يعتصم به المغضوب عليهم من الأمراء ، ويؤوبون اليه ويرومون جواره ، ويرجون شفاعته ؟ انها أم المقتدر ، ومن لقلوب الملوك

— وهى كالبارود سريعة الغضب ، شديدة اللهب — من الذى يطفىء لهيبها ، ويكبت سخطها ؟ انها أم المقتدر .

العدل والفوضى أمران لا يستويان ، غير ان أم المقتدر وقرت العدالة فى الضوضاء ، ونشرت السلام فى أرض البغضاء ، واستوت فى كرسى القضاء ، وفصلت الخصومات ، وازالت العدوات ، فكان لها مجلس فى كل يوم جمعة ، تنظر فيه أمور الناس ، وحولها الفقهاء والعلماء والقضاة والكبراء ، تدهشهم جرأتها ، ويأخذهم علمها وفضلها ، ويعجبون لبعده نظرها ، وصدق حكمها ، وسعة أفقها .

وعلى كثرة كتب التاريخ وحدة السنة المؤرخين ، لم يقل واحد منهم ان أم المقتدر حكمت فظلمت ، ولا سطر أحدهم انها قضت بغير حق ، بل صتوا أمامها صمت أبى الهول ، وسكتوا سكوت الليل ، وما من قوة أخرستهم وألجبت ألسنتهم الا الحق . فاكتفوا بالقول : ان أم المقتدر أمرت ونهت ، وتسمنت مركز القضاء تحكيم بين الناس ، وتقضى فى خلافاتهم ، وتوقع العقاب وتفرض الحلول .

المرأة ومجالس العلم :

منح الاسلام المرأة حق الارشاد وحرية التعليم ، وخصها بمزيد من العناية والاهتمام ، وسوى فى ذلك بينها وبين الرجل حيث ورد (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وورد أيضا (اطلبوا العلم ولو فى الصين) والصين اذ ذاك وطن مشرك ملحد ، فليس معنى طلب العلم فيها تعلم الحديث . والتفسير والتوحيد والتجويد ، والفقه وأصوله ، وانما معنى الحديث تعلم كل فن ضرورى للحياة ونافع ، وتقصى المعرفة مهما بعدت منابعها .

وبذلك ، بلغت المرأة العربية فى ظل الاسلام درجة اجتماعية رفيعة . دونها مراتب النساء جميعا ، فى أنحاء العالم المعروف آنذاك ، حيث لم يجد العلاء أى حرج فى السعى الى امرأة لسؤالها عن حكم أو فائدة ، فهذه .

عائشة زوج النبي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في حقها : (خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء) .

وهذه زبيده زوج الرشيد ، وسكينة بنت الحسين ، وشهادة فخر النساء ، وبوران حرم المأمون ، وقطر الندى امرأة المعتضد ، وكثيرات غيرهن من فضليات السيدات كن يجلسن مجالس العلم والأدب والمناظرة والمساجلة ، ويحكمن بين الشعراء والعلماء والخطباء .

المرأة والقتال :

أما في علم الحرب والجنديّة ، فقد ضربت المرأة العربية في صدر الاسلام المثل الأعلى في الاستشهاد في سبيل العقيدة ونصرة الحق واعلاء كلمة الله ، ومن هاتيك النساء العربيات اللائى ابلين في الجهاد والانتصار على الأعداء عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأسساء بنت أبى بكر ، وحسانة النسيرية ، ورابعة العدوية ، والخبساء .. تلك المرأة التى شهدت وقعة القادسية مع بنى الأربعة ، وخطبتهم تحضهم على القتال بخطبتها المشهورة المعروفة ، ولما بلغها نعيهم جميعا رفعت يديها الى السماء متضرعة قائلة (الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، واسأل الله ان يجمعنى معهم فى مستقر رحمته) .

ولعل أعظم ما يجب الاتباه اليه ، ان المرأة العربية فى عصر العباسيين كانت تتلون بلون مغاير لما كان قبلا ، بسبب دخول عنصر جديد على الحياة الاجتماعية العربية هو الموالى . وتتنيز تلكم الفترة بازدياد الاهتمام بالأدب والشعر والغناء والموسيقى ، ونتيجة لذلك ، فقد تغلب الجانب الفنى على حياة المرأة العربية : وصادف ذلك هوى ورغبة فى نفوس الخلفاء والأمراء . الذين امتلأت قصورهم بالجوارى والاماء ، من كل صاحبة صوت وناظفة شعر أو قارعة دف ، أو ضاربة بوتر .

على انه ما يدعو الى الاعجاب أيضا ، ان المرأة العربية فى العصور الاسلامية الزاهرة ، لم تقتصر على تعلم العلم وتعليمه للمبتدئين فحسب ،

وانما زحفت الى مركز الأستاذية حيث جلس أمامها شيوخ كبار ، يلتسمون الاستماع اليها أو القراءة عليها أو الاجازة منها ، واستمرت حركة التحرر فى البلاد العربية سائرة على غاية من الدقة والانتظام ، حتى حل بالشرق الأدنى ما عكر صفوه ، وقلب من جديد أوضاعه ، وانهى الأمر الى العثمانيين الذين كانوا أكثر ميلا الى الحياة العسكرية منهم الى الحياة المدنية المرفهة .

وعندئذ اختفى ويا للأسف على أيديهم ما نما وترعرع على أيدي سابقهم ، فارتدت المرأة العربية على أعقابها ، ورجعت القهقري الى عصور الظلام ، واحتجبت نهائيا عن المجتمع ، واقتصر نشاطها على كونها أما وزوجة وربة بيت وحرمت من مشاركة الرجل نشاطه فى مضمار الحياة الى أن ظهر عامل جديد فى الميدان ، تأثر الشرق به .. ذلكم هو النهضة الأوروبية الحديثة .

أوضاع المرأة الحديثة :

هذا عرض موجز جدا لوضع المرأة العربية فى التاريخ والأطوار المتناقضة التى مرت بها عبر العصور .

ومما تقدم يتبين لنا ان الاسلام قد توصل منذ زمن بعيد الى ما يطالب به المجددون اليوم ، وهو تحرير المرأة وتحقيق المساواة الفعلية بينها وبين الرجل لأنهما شريكان فى الانسانية . وكلمة الانسانية مأخوذة منهما جميعا . واذا كانت المساواة بين الجنسين فى الحقوق والواجبات ميزة ظاهرة تطبع العصر الحديث فى البلدان المتقدمة التى تستمد لغاتها لفظ الانسانية من الرجال وحدهم دون النساء حيث يقال مثلا : (HUMANITE) مأخوذة من

(HOMME) وهو الرجل . فقد سبق الاسلام كافة المبادئ وحقق المساواة بين أبنائه الذين تستمد لغتهم لفظ الانسانية من كلمة انسان ، ألا وهو مجسوع الرجل والمرأة .

واجب الدول العربية :

وإذا كان الناس لا يريدون تطبيق نظم الاسلام لغيرة أو لغرور ، فخليق بهم أن ينهجوا شرعة الأمم المتحدة التي تقرر المساواة بين الجنسين ، حيث تصرح المادة الأولى من مبادئ وأهداف هيئة الأمم المتحدة في « سان فرانسيسكو » بأنها تعمل على اثاعة وتشجيع الحقوق البشرية ، والحريات الأساسية لكافة الناس دون ما تمييز بين الأجناس واللغات والأديان أو تفرين بين الرجال والنساء ، وحسبما تنص المادة الثامنة من هذه المبادئ (بأن المنظمة لا تفرض أى قيد يحد من دخول الرجال والنساء ضمن شروط متساوية فى جميع الوظائف رئيسية كانت أم ثانوية) .

نحن المسلمين من أنصار المساواة الحقيقية ، لا الوهمية ونحن ندعو ونعمل من أجل تحطيم القيود التي تكبل المرأة ورفع السدود التي تحول دون دخولها الحياة العامة . ونحن واثقون انه لن يأتى اليوم الذى تصبح الأمة العربية فيه سيدة نفسها واثقة من مستقبلها ، آمنة على كافة حقوقها ومصالحها الا حين تصبح المرأة العربية بالذات ، عضوا صالحا فى المجتمع ، وتستقل فكرا وعملا ونزعة . وتشعر انها انسان لها حقوق الانسان ، وتعمل وتجد وتصبح مواطنا سعيدا منتجا حرا بكل معنى الكلمة .

ماذا نريد للمرأة :

الكلام فى حقوق المرأة حديث جديد فى المدينة ، وإذا كانت المرأة العربية فى ظل الاسلام قد حصلت منذ خمسة عشر قرنا تقريبا على كثير من الحقوق التي لم تنلها المرأة الغربية الا فى أوائل القرن العشرين ، فان المرأة العربية اليوم لم تستفد من أحكام الاسلام شيئا ، وواقعها واقع لا تحسد عليه أبدا لأن أولى الأمر وكثيرا ممن ينتسبون الى الدين الاسلامى ظنوا أن الاسلام ظلم المرأة وسلبها حقوقها ، مع العلم بأن الاسلام أعطاها من الحقوق ، وفرض على الرجل من الواجبات ، ما يجعله هو فى موقف لا

يحسد عليه ، وما جعل بعض الظرفاء يطالبون للرجل بمساواته مع المرأة لما لها عليه من امتيازات .

ميراث المرأة :

فى القرن السابع للميلاد تندى قطر فى صحراء العقائد ، وظهرت الطمأنينة والسعادة فى ضوضاء العرب ، واطلت الشريعة الاسلامية كالطل على المرأة المسكينة وتعهدتها بالرعاية والعناية ، ولم تبخل عليها بالعناية ، وجعلت لكل من الذكر والأنثى نصيبا معلوما من ارث المتوفى (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب) . هذا هو الحق المعلوم الذى تفرضه البنوة على الأبوة ونعمة الخير القائمة الأثر بين المولود والوالد ، والذكرى لا تموت بين الولدان فى مراحلهم وقصورهم ، والآباء فى رموسهم وقبورهم ، وهذا النصيب القائم لا يتواضع أو ينكمش ان تواضع الوارث وصغر ، ولا يتضخم ويطنى ان عظم الوارث أو كبر ، لا لشيء الا لأنه حق ، وسيان فى ذلك حق الأمير والحقير ، وحق الكبير والصغير وحق الوزر والخفير ، وما ذلك الا طاعة للقسمة الربانية (فريضة من الله وكان الله عليماً حكيماً) .

أقام الاسلام للارث قواعد لا تحيد وما على الناقد البصير والباحث العدل ، الا ان يلحظ المزايا العظيمة للميراث فى الاسلام ، والتي تنطوى عليها مصالح العباد أو يتم بها نظام الحياة .

ألم تهاجم الاشتراكية على اختلاف أقسامها وكثرة وجوها — وبرزها اشتراكية سان سيمون — النظام الارثى الذى أثبتته الاسلام ؟ ألم يجحد القانون اليونانى والرومانى حق القرابة وجاء الاسلام فأثبتته ؟ ثم ألم يكن نظامه المتبع فى التوزيع والتركة حسب السهام ، ووضع الأنصبة ، فتحا فى عالم التنظيم والابداع تفرد به دون سواه من الشرائع والقوانين تلكم الشرائع التى كانت تفرق .. بين الأرشد وغير الأرشد فى ميراث الذكور .

وجاء الاسلام فسوى وعدل ، والتي كانت تميز بين البكر وغيره وجاء الاسلام فقوم واقسط ؟ .

وجهها لوجه مع المتهجمين :

وان الاسلام لا يساوى المرأة بالرجل فقط بل يرفعها ويدنيه ، ويسعدها ويشقيه ، وما من أمة تحت السماء انصفت المرأة وناصرت المرأة ، وقررت حقوق المرأة ، وحررت المرأة ، مثل الأمة العربية .

وفى ذلك يقول فون كرومر (ان العرب كانوا مفطورين على احترام النساء ، ومنهم تعلم الغربيون احترام نسائهم) .

واذا كانت ارادة الله قضت علينا اليوم ان نصبح فى مؤخرة الشعوب ، بعد ما كنا فى مقدمتها ، نتيجة جمودنا وتخاذلنا ، فانه يجب علينا ان نعد فى ثنايا هذا الظلام الدامس الى نشر ما فطرنا عليه ، من احترام النساء . وان تؤمن بأن التاريخ يجب ان يعيد سيرته ، وان الديمقراطية يجب ان تسود . وان المرأة العربية يجب ان تتحرر ، وان المبادئ الانسانية يجب ان تعم وتنتشر (١) .

(١) راجع مؤلفات الاستاذ محمد جميل بيهم حول المرأة .

لبنان .. إخاء بين المسيحية والإسلام

✳️ يعتقد الاستعمار ان باستطاعته البقاء فى لبنان ما دام فيه داء الطائفية ، ولذلك فهو يستخدمها فى كل مناسبة للسيطرة .

✳️ ان الدول الكبرى كانت تتقاسم الطوائف اللبنانية ، فهذه كانت تنعم بعطف فرنسا ، وتلك تساعدها بريطانيا ، والثالثة تسجهم مصالحها مع مصالح امريكا .

✳️ حان الوقت لكى يعلم جميع المعنيين بأمر الطائفية ، ان المسيحيين ليسوا غرباء عن هذه الديار ، وان المسلمين ليسوا دخلاء عليها ، وان « استحالة الحياة » بين هاتين الطائفتين فى وطن واحد . اصبحت نوعا من « الخرافة » بفضل الوعي العربى .

السلم والسلام وكل ما يتفرع منهما ، ويحمل الحياة بحقائقهما وينسب اليهما : من المبادئ الاساسية التى قامت عليها رسالات السماء عامة ، وحملت لواءها المسيحية والاسلام بصفة خاصة .

فاما المسيحية فرسالتها الحب وطريقها الاخاء وغايتها السلام ، وشعارها المصوغ من هذه المثل الرفيعة : « المجد لله فى الاعالى وبالناس المسرة وعلى الارض السلام » .

واما الاسلام فهو مرادف « السلام » وقرينه فى الاشتقاق من مادة « سلم » وضرية فى هاتساع الكون بالسلامة فى الابدان والانس والاموال .

من اجل ذلك كانت تحية ابناء الاسلام عند اللقاء « السلام » ووداعهم عند الفراق « السلام » واسم الله عندهم : السلام ، واقدس لياليهم ليلة القدر التي انزل فيها القرآن تميزت بالسلام « سلام هي حتى مطلع الفجر » .

فاذا كان هذا شأن الديانتين اللتين تنتسب اليهما الكثرة الغالبة من ابناء لبنان ، فكيف يعتبر التعايش السلمى بين اتباع ديانتى السماء قضية تحتاج الى اثبات ؟ أو مشكلة تتطلب العلاج ، او غاية يسعى اليها الاحرار والمنصفون من قادة الوعى فى لبنان ؟

ان التعايش السلمى بيننا هو نتيجة حتمية لكوننا مسيحيين ومسلمين ، وهو الثمرة الطبيعية لانتسابنا الى المسيح — وهو رمز الحب والتسامح بين الناس سواء منهم المحبون والكارهون — والى محمد الذى يقول الكتاب الذى انزل عليه « لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » والتعايش السلمى بديهة من البساطة بحيث لا تتطلب ارادة بحث ولا تقليب رأى ، للوصول الى اتفاق عليها أو الالتقاء حولها ، وهو كذلك حقيقة واقعة تشكل الطبيعة الصحيحة التلقائية لحياتنا الاجتماعية ، كما يشكل الجريان طبيعة الماء ، والهبوب طبيعة الهواء ، والتنفس طبيعة الحياة فى الانسان .

التعايش تجسيد حقيقة قديمة :

ومع ان التعايش السلمى تعبير حديث ، فهو تجسيد لحقيقة قديمة اراد المستعمر ان يطمسها ويشوهها ، ليتاح له أن يتسلط وان يمد سيطرته ويوطد نفوذه .

فمنذ الرومان كانت القاعدة الاستعمارية « فرق تسد » هي « التكتيك » الناجح الذى يلجأ اليه المستعمرون لتحقيق النزاع بين طبقات الأمة ومختلف فئاتها ، يضربون بعضهم ببعض ، ويحرضون هذه على تلك ، ويشيرون المخاوف فى صدر الواحدة تجاه الاخرى ليخلو لهم الجو ،

وليامنوا اتحاد هذه الفئات جميعا ووقوفها فى وجه الدخيل واطماعه ،
والطغيان الاجنبى وشروره .

وكلنا يعلم ان كثيرا من بلاد الله كانت ميدانا تطبيقيا لهذه القاعدة ،
فالهند مثلا لم تعرف الاستقرار فى عهودها الذليلة ، لان الاستعمار حرم
عليها الاستقرار ، ولأن وسيلته الى غايته ، كانت فى خلق نوع عنيف من
الصراع المفتعل بين فئات الوطن الواحد بل على التحديد بين الهندوس
والمسلمين .

الهندوسى يقدر البقرة ، والمسلم يعتبرها من الحيوانات التى خلقها
الله لخدمة الانسان ، ورغم ذلك فان نوعا من الاتفاق الضمنى والتعايش
السلمى كان قائما بين التفكييرين ، فلا الهندوس يفرضون على المسلمين
عبادة البقرة ، ولا المسلمون يطلبون الى الهندوس ان يتنازلوا عن عقيدتهم ،
باعتبار ان العقائد الدينية ليست الا جزءا من حرية الفرد الشخصية وحرية
تفكيره .

وعندما كانت الاصطدامات تقع بين المسلمين والهندوسيين ، كان
المستعمر حابك المؤامرات هو الذى يشعل نار الفتنة ويحرك شيطانها ، وهو
الذى يفتعل السبب للالتحام ، ليصرف المواطنين عن هدفهم الاصيل الذى
يسعى اليه القادة المخلصون .. الا وهو النضال الدائم المستمر لطرد الاجنبى
واتنزاع جذور الاستعمار من ارضهم .

وكان هذا الدخيل ينبرى حين تقع الواقعة ليذيع على الدنيا انباء الفتنة
مكبرة مضخمة ، وليظهر للعالم ان الهند غير جديرة بالاستقلال ، وان وجوده
فيها وبقائه على ارضها ضرورة حيوية لاقامة السلم بين فئاتها ، وانه لولا
تدخله لطغت فئة على اخرى وافتنها فى حرب اهلية ضارية لا ترحم .

وكان بعض السذج يصدقون هذا المنطق ، ولكن الذين لم يكونوا يصدقونه هم الواعون المخلصون الذين آلوا على انفسهم ان يفضحوا الاستعمار ، وان يدحروه وان يفسدوا عليه خطته .

وبالفعل فلقد استمر نضالهم وامتد الى ان وجد الاستعمار نفسه عاريا من كل هيبة ، مجردا من كل نفوذ ، والى ان تحقق ان اساليبه في تفريق الصفوف وتأريث الاحقاد ، لا يمكن ان تحمي مصالحه ، فاضطر الى ان يغادر الهند وفي نفسه الحسرة والكمد ، وعلى مفرقه عار الزمن وسبب التاريخ .

تجربة الاستعمار في البلاد العربية :

لم تنجح بلادنا العربية من ان تكون حقلا للتجزئة ، فالاستعمار اياه حاول خلال فترة طويلة من الزمن ان يزرع الفتنة في مصر ، كما حاول ان يحمل بذورها الشريفة الى سوريا ، ولكنه كان ينتهي دائما ذليلا مدحورا ، تفضحه عيون الوطنية الساهرة وتكنس آثاره طاقات الوعي التي تنفجر في دنيا العرب ، كلما طاب لمستعمر ان يتحدى ارادة شعبنا العربي ويتسلل الى صفوفه .

الطائفية سلاح الاستعمار :

واما لبنان فقد كان له النصيب الاوفى من دسائس المستعمر وفتنته ، وكانت الطائفية هي السلاح الذي يمتنقه في كل مناسبة ، بسبب تعدد ديانات سكان هذا البلد واختلاف عقائده ، وكان الطمع بلبنان يستند الى أسباب كثيرة . . اهمها ان هذه البقعة من الارض هي المنفذ الطبيعي لبقية البلاد العربية ، فالسيطرة على لبنان تسهل السيطرة على سورية والاردن والعراق ، ومن هذه البلاد كلها يمكن السيطرة على مصر وقناة السويس .

كما ان الاستعمار بسبب تعدد الطوائف اللبنانية ، كان وما يزال يعتقد ان باستطاعته ان يلعب ورقة الطائفية فى أى وقت شاء ، ليحقق اطماعه فى الاستيلاء على هذه المنطقة الاستراتيجية .

كما ان الاستعمار بسبب تعدد الطوائف اللبنانية ، كان وما يزال يعتقد أن باستطاعته أن يلعب ورقة الطائفية فى أى وقت شاء ، ليحقق أطماعه فى الاستيلاء على هذه المنطقة الاستراتيجية .

ومن هنا نشأت فكرة الحياد الايجابى .. الفكرة التى تحقق للعرب كسبين عظيمين : الاول استقلال بلاد هذه المنطقة وسيادة شعوبها ، وباستقلالها وعدم سيطرة احد عليها يتحقق الكسب الثانى والأهم الا وهو السلام العالمى . وهكذا نجد ان دور العرب فى اقرار السلام العالمى وهو دور رئيسى ، وكلما قويت جبهة الحياد الايجابى فى العالم كلما ابتعد شبح الحرب الذرية التى تهدد الانسانية بالدمار والفتنة .

الدول الكبرى تتقاسم الطوائف :

ومن هنا ايضا يتبين للمدقق اهمية الدور الذى يود الاستعمار ان يلعبه حين يحرك الطائفية ، ويستخدمها كسلاح فعال للسيطرة على لبنان . فهو يطلق الفتنة الطائفية حيناً بعد حين ، يطلقها بين المسيحيين والدروز وبين المسلمين والمسيحيين ، حتى ليتمكن القول ان الدول الكبرى كانت تنقسم الطوائف اللبنانية ، ليجعل الاستعمار — وهو قاسمها المشترك الاعلى — من لبنان مناطق لنفوده .

فهذه الطائفة مثلاً ، تنعم بعطف فرنسا وتلك تساعد بريطانيا وثالثة تنسجم مصالحها مع مصالح اميركا ، وهكذا دواليك حتى اصبحنا فى وضع دقيق جداً ، فلا يكاد ينشأ بين شخصين من طائفتين خلاف بسيط حتى يتعالى الصراخ من كل جانب وتكالم التهم جزافاً للدولة والكيان بأسره ،

وتعلو نعمة مقبلة تسبح بخمد الاستعمار وضرورة رجوعه للتهديب والحماية ونشر الحضارة .

وهذا ما حدث فعلا فى عام ١٨٤١ اذ تشاجر درزى من بعقلين مع مواطن من دير القمر ، فاذا ببريطانيا تهب لنصرة الدروز ، واذا بفرنسا تتجند لحماية المسيحيين واذا بالعثمانيين يتجاذبون الفريقين حفظا لكرامتهم كحاكمين شرعيين للبلاد وصونا لنفوذهم الذى تهدده بريطانيا وفرنسا بتدخلهما السافر .

وليس جديدا بأن نقول بأن فتنة ١٨٦٠ الدامية التى وصمت حقبة من تاريخنا بوصمة مفتعلة ، ليس جديدا ان نقول بأن هذه الفتنة كانت من نتائج الدس الاجنبى الذى كان يقتعل الحوادث ، ليتدخل او ليحمى بعضنا من البعض الآخر على حد زعمه .

الهررة الثالث :

ومن سوء حظنا ان الطامع بنا ، ببلادنا الخيرة ، بثرواتها ، كان اكثر من واحد ، فاذا بنا كقطعة لحم طرية يتنازعها ثلاث هررة : الفرنسيون والانكليز والأتراك ، كل منهم يطمح ان يسيطر على مواردنا ، وان يستثمر خيرات بلادنا ، وهكذا فما كاد ينشب خلاف عادى فى سنة ١٨٦٠ حتى هبوا جميعا يتنازعون على الغنيمة ويقتتلون فى سبيل التفرد بها . وليس ادل على ذلك من سلوك العثمانيين فى بلادنا . فالأتراك كمسلمين دخلوا البلاد كما هو معروف لحماية فئة معينة — ان لم يكن ذلك ظاهريا فعلى الاقل بصورة ضمنية — ولكنهم ما كادوا يسكون بزمام الامور حتى اخذوا يحاربون الوعى وينشرون الجهالة ويسومون جميع الطوائف اشد انواع العذاب والتنكيل ، بما فى ذلك المسلمين . ومن لا يصدق فليسال مشائق عاليه ، ومشائق بيروت ، وليستعرض اسماء الشهداء الذين علقهم السفاح التركي العاشم ، وحينئذ تتجلى لعينه حقيقة صارخة لا يمكن نكرانها ابدا ..

وهي ان عناصر هذا البلد وفتاته على اختلاف عقائدهم لا تنساق لمطامع الاجنبي ، ولا تؤخذ بالأعيه وأكاذيبه . ان مشائق جمال باشا السفاح لم تنف ولم تعف عن عنق المسلم لأنه مسلم ولم تشد عنق المسيحي لأنه مسيحي . بل اطبقت على اعناق النخبة من شباب الامة الذين تجرأوا وطالبوا بالحرية لبلادهم وبالكرامة لوطنهم .

داء الطائفية :

كما ان الدلالة التي تحملها تلك الكارثة دلالة عميقة المعنى تلقم ، كل مضلل حُجرا وتبرهن بأن الطائفية لم تكن يوما ما حاجزا بين نضال المسلم ونضال اخيه المسيحي اى ان نضال المواطن لم يتجزأ يوما ولم يتلون بلون الدين وانما كان نضالا مشتركا ضد التحكم والتعسف والظلم والعدوان .

فداء الطائفية اذا .. هذا المرض الخبيث الذى استشرى فى جسم وطننا الحبيب واعبى علاجه نطس الطب وعلماء الاجتماع ، هو دخيل علينا ومستورد من الخارج ، ان التدين فى بلادنا قديم ولكن الطائفية مستحدثة ، اننا فى هذا الشرق حواريو الانبياء واتباع الاولياء ولكننا لم نغمس فى الحقد الدينى الذى يدعى « الطائفية » الا حينما جزتنا اليه اساليب الاستعمار واحاييل المستعمرين .

لا طائفية فى الدين ولا دين مع الطائفية . هذا هو المبدأ الذى يجب ان بعنقه المسلمون والمسيحيون فى لبنان ، لان الدين رحمة للعالمين وهدى للناس اجمعين وهنو شمس الله التى تشرق على الجميع ، وغيث الله الذى يحيى موات الخير فى قلوب الجميع ، وشتان بين الدين وبين الطائفية .

لقد نظر القرآن الكريم الى جميع الاديان السماوية نظرة تمجيد وتكريم وخص المسيحية بالذات حينما قال : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا

الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون .

ولو اننا رجعنا الى صفحات التاريخ ، وقلنا سير تراجم اعلام المسيحية والاسلام فى العصور القديمة والحديثة لألفينا ميزة الحب والاخلاص والتسامح جلية واضحة بينهم فى اقوالهم وافعالهم وسائر شئون حياتهم .

فهذا الخليفة المتوكل على الله العباسى ، حينما اراد ان يستوثق من أمانة الطبيب الكبير حنين بن اسحاق ويختبر درجة اخلاصه قبل ان يقربه منه لينتفع بعلمه وخبرته ، راوده ان يضع له دواء مسموما ليغتال به احد اعدائه السياسيين وقال له : ياحنين ، انى اريد ان اقتل عدوى هذا قتلا قاحلا من غير ان يدري بذلك احد ، فأنتى بما تدبره له .

ولم يكن الطبيب يعلم ان هذه تجربة له ليستوثق من اماتته واستقامته مخافة ان تلعب بعقل الطبيب رشوة اعداء الخليفة فيقتله غيلة ، ومع ذلك فقد اجابه الطبيب قائلا :

ايها الخليفة ، اننى تعلمت من العلم ما طاب ونفع ، وما عدا ذلك لا علم لى منه : فخيره الخليفة بين امرين : هدية سنية ان لى طلبه ، وان أبى فالسجن والموت ، فلم ينش حنين عن عزمه ولبث فى السجن حولا كاملا لم ينقطع خلاله عن التأليف والبحث .

ولما رأى الخليفة ان التهديد لا يؤثر فى نفس ذلك الطبيب دعاه وقال له : يا حنين هدىء من روعك واطمئن الى نفسك ، فقد صرت على يقين من حسن طويتك وجعلتك طبيبى الخاص ، شريطة ان تخبرنى عن سبب امتناعك عن تنفيذ ما اردت .

فقال الطبيب : انما كان ذلك لأمرين : احدهما دينى فهو يمنعى عن كل ضرر ألحقه بأحد ولو كان عدوى ، وثانيهما صناعتى ، فلها على من الواجب ما يرغمنى على فعل الخير بالناس .

وهذا الخليفة المعتضد العباسي يحاول ان يختبر مدى ايمان ابي قرة الصائبي وهل يبيع دينه بدنياه ، فعرض عليه أن يطعم مرة فولا ويأخذ الفى دينار ، ومن المعروف ان الصابئة تحرم أكل الفول فرفض الصائبي ذلك وقال له : لا والله يا امير المؤمنين ، لا اطعمه ابدا ولو وزنت لى ملء هذه الحجرة ذهباً ، فكان بموقفه هذا محلاً لرعاية الخليفة المسلم ووجه واحترامه .

وهذا المنصور بن ابي عامر الملك الاندلسى ذو الايمان الصادق واليقين العظيم ، ما كاد يزور مدينة ساتياغا البورتغالية ، ويزور ضريح يعقوب تلميذ المسيح عليه السلام حتى لاحظ بجوار الضريح راهبا منقطعاً لخدمته والعناية بأمره ، فسر الخليفة المسلم كثيراً واعجبه من الراهب المسيحي ما رآه فيه من معالم الايمان والاخلاص ، فأعذق عليه عطاياها وبالغ فى اكرامه .

ثم هذا الخليفة العباسي المعتصم يبكى ويطلق البكاء على طبيعة المسيحي المخلص سلمويه ، لما عرف عنه من الصدق فى الدين والاخلاص فى العقيدة والاستقامة فى العمل ، ودفعه وفأؤه له ووجه اياه الى استشارته عن الشخص الذى يجدر ان يسند اليه عمله ، فقال له سلمويه : عليك بحنين بن ماسويه . ولما قضى سلمويه نجه امر المعتصم ألا يدفن حتى يصلى عليه فى قصره صلاة الجنازة حسب الطقوس المسيحية ، ثم تقبل المعتصم التعازى واحجم عن الطعام اياماً حدادا على صديقه وطبيبه سلمويه المسيحي .

أما الرحالة ابن جبير ، فانه يذكر لنا فى رحلته ان غليوم الثانى ملك حقلية كان معجبا بايمان العلماء المسلمين وكبير اخلاصهم ، فاتخذهم مرافقين له يمهدون امامه طريق المعرفة ، ويدرسونه آداب اللغة العربية ، وكان يأتمنهم على كل خواصه حتى على طعامه وشرابه واسراره وقد نقش على خاتمه « الحمد لله وحده » .

ثم لم يكند ينتهى عهد الاتراك الاسود ، عهد الجوع والعرى والتشرد؛
عهد السفاح جمال ، حتى اطل علينا شبح استعمار جديد اخذ يتمركز فى
ربوعنا .

أرض العروبة مهبط الرسالتين :

انبرى المواطنون الاحرار ليقولوا للاستعمار ان افتراقنا فى الدين الى
مسلمين ومسيحيين ، لا يمكن ان ينال من وحدة البلد العربى الذى نشترك
فى شرف الانتساب اليه ، وتتقاسم خيره وامجاده فى اخوة صادقة ووحدة
وطنية شاملة . ذلك بأن أرض العروبة مهبط الرسالتين المسيحية والاسلامية
هى وطننا جميعا ، نلتقى فى ظله وتعاون على اسعاده ، ونسير جنبا الى
جنب فى الدفاع عن مقدراته ، وتتعانق أشلاؤنا اذا جد الجد فى ساحة
الفداء له .

وما كان اختلاف الدين بين ابناء البلد الواحد . عامل هدم او توهين فى
كيانهم القومى ، متى استوفى مقوماته من اتحاد اللغة والجنس والأرض
والمصالح والآلام والآمال .

ولقد قام الوطن العربى فى ظل بطل العرب الاكبر محمد بن عبد الله
صلوات الله عليه على اساس توافر هذه المقومات التى لم ينقص من اهميتها
واثرها فى تكوين الوحدة الوطنية أن يكون لأبنائه يومئذ أكثر من دين .

نعم قامت دولة اسلامية — وان شئت قلت دولة العرب — الأولى فى
المدينة غب الهجرة ، فاذا دستورها المثالى كما تقرره صحيفة المودعة بين
المسلمين واليهود ، ييسط جناح الامن والسلام والاخاء على اهل المدن
جميعا بدرجة واحدة مساواة تامة فى الحقوق والواجبات لا يلمح فيها ظل
للتفريق بين المسلم صاحب الاكثرية والرياسة ، وبين اليهودى الذى يمثل
الاقلية التابعة .

وبهذا تقدم الدليل الحاسم على ان الدولة التي تقوم على التعصب وتبنى سياستها على الاهواء والطائفية ، تكون قد نددت عن الناموس الطبيعي في قيام الدول وخربت الاساس الصالح الذي يحفظ عليها عنصر البقاء والاستمرار .

ومن هذه المغالطات التي تخلق نشوء الامم كانت دولة اسرائيل كيانا مزيفا لا يمكن ان يعيش لانه قام على اساس ديني عنصري ، على شتات من امم مختلفة لا تجمع بينها وحدة تاريخ ولا وحدة مصير .

وقال الوطنيون الشرفاء للاستعمار الفرنسى : ليس المسيحيون غرباء عن هذه الديار ، وليس المسلمون دخلاء على هذه البلاد ، واكتشف الاستعمار انه هو وحده الدخيل وانه هو وحده العلة التي تمتص دماء الشعوب والحشرة النهمة التي تأكل خيرات الآخرين ، وكان علينا نحن ان ندفع ضريبة الدم من جديد .

وحصدنا رصاص المستعمر الفرنسى دون ان يفرق بين مسلم ومسيحى ، واختلط دماء شهدائنا فى طرابلس وصيدا وفى بيروت ومختلف المدن اللبنانية ، دماء مسيحية ومسلمة ، امتزجت لتصنع للبنان تاريخا من العزة والكرامة والمجد ، تاريخا بريئا من العنعات الطائفية .. من هذا الطاعون الوافد الذى لا يمكن ان يعيش فى ارضنا ابدا . وهكذا جمعنا النضال ضد المستعمر الفرنسى مرة ثانية بعد ما جمعتنا مشانق جمال باشا السفاح وكانت ثورة ١٩٤٣ التى سرنا فى صفوفها مسيحيين ومسلمين ضد الاستعمار الفرنسى المسيحى مكملة لثورتنا ١٩١٦ ضد الاستعمار العثمانى المسلم . وحمل الفرنسيون تاريخهم الاسود ورحلوا ، فهل انتهت فتن الاستعمار الطائفية فى بلادنا ؟

لقد غادرتنا جيوش الاحتلال وانتهى بخروجها عهد الاستعباد . اما المؤامرات فلم تنته ولكن الشيء الأكيد الراهن هو ان الثائفة لم تعد ابدا لسوء حظ المستعمرين السلاح الظافر او الورقة الراجعة .

محاولة أخيرة فاشلة :

لقد حاول المستعمر خلال فترة ما بعد الاستقلال ان يوقظ نار الفتنة اكثر من مرة ، ظنا منه ان اشعال نار حرب اهلية في لبنان بين المسيحيين والمسلمين هو خير وسيلة لتهديم الكيان وتقويض اركانه ، وخير حافز لفئة معينة للاستنجد بفرنسا وطلب حمايتها . وانه لمن المؤسف حقا ان يكون في سفوفنا بعض التجار ، تجار الاديان والوطنية الذين كان همهم الأوحاد ان يحققوا للاستعمار اغراضه وان يصبوا الزيت على الفتيل ليشتعل عند اول احتكاك .

هؤلاء التجار التزموا لأسيادهم اضرار النار ، وكانوا حريصين جدا ان يقوموا بالتزاماتهم ، ومن اجل ذلك دأبوا على جبك الفتن في الظلام ، وراحوا في كل مناسبة يشنون حربا استفزازية كلامية تعلن ابواقها ما يلتقن المستعمر لهذه الابواق من اضاليل وتضليل ، ولكن الشعب المتراص المتكاتف عرف كيف يقابلهم في كل مرة بالسخرية والازدراء والاحتقار .

وقد اخذنا نلاحظ أن مروجى هذه البضاعة بدأوا يختفون عن المسرح السياسي شيئا فشيئا ، لانهم باتوا يخجلون من وعى الشعب ، من النور الفاضح المسلط على مخازيهم . ولقد بدأت قضية استحالة التعايش بين المسيحيين والمسلمين في وطن واحد ، لقد بدأت هذه القضية تدخل في تاريخ الخرافة بعد ان حطم وعى الشعب ارادة الفريقتين المعنيين هذا الادعاء المفضل .

ولم لا نقولها بصراحة ان التعايش السلمى بين المسيحية والاسلام ،
هذا التمايش القائم منذ نشوء الاسلام ، اصبح فى لبنان ضرورة كيانية ملحة
لبقاء هذا البلد واستمراره . وهل يعيش الطائر بجناح واحد وهل يحيا
الانسان برئة واحدة ؟

فى كل يوم يقف اكثر من رئيس دينى مسيحي ليعلن للعالم حقيقة هذا
التعايش وفى كل يوم يقف اكثر من رئيس دينى مسلم ليؤكد للملأ ان هذا
التعايش لا يمكن ان يؤثر فيه دس ولا تضليل ، ولكن الاستعمار لا يكل ولا
يمل ، انه يؤمن باخلاص فئة ضئيلة من المأجورين ، ويعتقد ان باستطاعة هذه
الفئة ان تحقق له اغراضه وان توصله الى غاياته .

ولكن الاستعمار اصبح من البلاهة والخرف ، وقصور التفكير وبلادة
الذهن لدرجة تحمل فعلا على الضحك والسخرية ، لانه اغفل عامل الوعى
ونسى ان كل لبنانى اصبح يعرف تمام المعرفة ماذا تعنى دعايات الاجنبى وانه
امسى يعرف تماما ان تحريض فئة على فئة لا يستفيد منه الا المحرض .

لقد صار بإمكان اللبناى ان يستخدم معرفته للتوصل الى حقيقة الامور
وجوهرها ، صار بإمكانه ان يميز الغث من السمين والحق من الباطل .

لقد تهدم جدار الرعب القائم بينه وبين جيرانه العرب ، واكتشف
اللبناى ان المسلم فى الجزيرة العربية مثلا او فى مصر او فى العراق او فى
سورية أو فى الأردن ليس الا اخا له ، يفتح له صدره ، ويقف الى جانبه
لشده أزره عندما تدعو الحاجة ، وأن يفتح له فوق ذلك صدر بلاده يسرح
فيها ويمرح ، ويشارك فى خيراتها ويعمل على ازدهارها ويسهم فى تطويرها
وانهاضها . ولم يعد يرى فى جاره المسلم .. جاره فى بلده ، قبضة مهددة
تهم بالانقضاض عليه فى أية لحظة لتؤدى به ولتقضى عليه وعلى كيانه
الوطنى .

لا حاجة لاثبات الاخوة :

إذا حاولت ان اعدد المواقف التاريخية والأزمات التي مرت بهذا البلد واثبتت متانة الوحدة بين أبنائه ، وروح الأخوة بين طوائفه والتعاون المشمر بين عقائده إذا حاولت ذلك ، فانتى لا تستطيع احصاء تلك المواقف ، وإذا اردت أن اعدد المحاولات اليأسة الفاشلة التي لجأ اليها الأجنبي وما يزال ليجعل من الطائفية مرتكزا له في بلادنا ، وإذا اردت أن اعددتها اعوزتني المجلدات ، لأن للأستعمار في بلادنا كل يوم محاولة ، واعتقد انه قد آن للأستعمار ان يفهم ان المسيحية والاسلام كديانتين سماويتين ليس بينهما أى خلاف أو صراع ، فالركائز الأساسية التي تقوم عليها احدهما هي الركائز الأساسية التي تقوم عليها الأخرى ، ان الجوهر واحد والمثل واحد والغاية واحدة .

وكما فوتت وحدتنا بالماضى على المستعمر اغراضه واطماعه ، فان هذه الوحدة بالذات هي التي تفوت عليها اليوم ما يؤمل .

وحدة الوطن :

لقد آمننا جميعا بوحدة الوطن ضد الخطر الأجنبي ، وضد الخطر الذى يجثم على صدرنا الجنوبية .. ضد اسرائيل التي تترقب الفرص السانحة لتقضى على هذا البلد الآمن وعلى غيره من البلدان العربية ، فتحقق احلامها فى ملك يشمل النيل والفرات ، وتحقق أغراض المستعمر كقاعدة استعمارية فى قلب منطقة الشرق الأوسط قاعدة ينطلق منها الى دول المنطقة بأسرها ليتحكم فى مصائر شعوبها ، ويمتص خيراتها ويستغل الطاقات الخيرة الكامنة فى ارضها .

لقد آمننا بوحدة هذا الوطن كجزء من شعب عربى كبير ، تألف فيه المسيحيون والمسلمون ، وربطتهم عرى أخوة عريقة عبر التاريخ ، وصهرتهم

آلام واحدة ، وجمعهم ماض وتاريخ وحياة مشتركة . وجمعهم مستقبل واحد وآمال واحدة ومصير واحد .

آمنا بوحدة هذا الوطن ، بتآلف طوائفه ونحله من أجل غد زاهر آمن لأبنائنا جميعا ومستقبل مجيد لأجيالنا الطالعة .

ان التعايش السلمى بين المسيحيين والمسلمين فى لبنان فضلا عن كونه واقعا ملموسا منذ اقدم الأجيال . وحقيقة لا ينكرها الا مكابر ، فانه ضرورة كائنة ، ضرورة من اجل المثل العليا التى تؤمن بها جميعا ، من اجل الأهداف المشتركة التى تؤمن بها جميعا وهى الطاقة التى تمنح هذا البلد قوة الاستمرار ، وهى الرئة التى يتنفس بها ويعيش . فاذا لم تكن وحدة اللبنانيين من أجل جميع هذه المثل فلتكن على الأقل من أجل بقاء لبنان واستمراره .

هذا هو منطق الواقع والتاريخ ، فى ضرورة التعايش السلمى بين المسلمين والنصارى فى هذا البلد الحبيب . فهل آن لنا ان نسمع كلمة الدين الخالص ، كلمة التشريعات المذهبية الصرف ، كلمة الاسلام والمسيحية فى اثبات هذا التعايش ، وتيسير اسبابه وازالة كل العقبات ، التى يتوهم المغرضون والجاهلون ، انها تقوم فى طريقه .

هذا صوت المسيحية الحبيب ، يطرق اسماع الدنيا كلها بترانيم المحبة ويجعل شعار اتباعه الرفق والرافة ، وتثور آلام نبيه العظيم عليه السلام ، من اجل حماسة واحدة ، ويسط كف الصفح للمسيء فضلا عن المحسن ، حين يقول : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » .

ويشغل كل انسان بعيه حتى لا يأخذه الغرور فيتناول على غيره ولو كان جديرا بأن يتناول عليه !

ثم ان هناك موقفا لروح الله المسيح عليه السلام حين اراد بعض من اصحابه ان يرحم امرأة زانية فقال لهم « من كان منكم بلا خطيئة فليرحمها فكف الناس ايديهم عنها .

ان دينا هذا شأنه مع الخصوم وجيران السوء لا يمكن ان يرضى
لأبنائه ان تضرب معيشتهم مع اخوانهم واحبابهم المسلمين .

اما صوت الاسلام الخالص فهو حقيقة التعايش السلمى بذاتها . وهو
الضمانات الكفيلة بامتداد طريقة رحبة فسيحة معبدة ، لا تعرف العقبات ولا
تعرف المشكلة حتى تقدم لها العلاج فالاسلام يقرر ألا اكره فى الدين .
والرسول العظيم يكرم اضيافه من نصارى الحبشة حتى يقوم بنفسه على
خدمتهم وتقديم الطعام اليهم ، وعمر بن الخطاب تحضره الصلاة أمام كنيسة
القيامة فيخرج للصلاة بعيدا عنها رعاية لشعور النصارى وخشية أن يغلبهم
عليها المسلمون وهم فى أوج الظفر والانتصار ، والقرآن الكريم يضع
المعابد على اختلاف اديانها فى مستوى واحد من الاحترام ، ويبلغ من
مجالته للأديان السماوية أن يقدم معابدها على معابده فى نسق الآية الكريمة
« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد
يذكر فيها اسم الله كثيرا » .

الا يحق لنا ان نقول ان الاسلام يتعصب لعقيدة المسيحية اكثر مما
يتعصب لحماية اتباعه المسلمين ؟ فهل لمكابر بعد ذلك كله ان يزعم ان اختلاف
الدينين مانع من التعايش السلمى بين الطائفتين ؟ .. « كبرت كلمة تخرج من
افواههم ان يقولون الا كذبا » .

واخيرا فلتحن الرؤوس ولتخشع القلوب لصوت الوحدة الدينية
والأخوة الاعتقادية بين الأديان السماوية جميعا تنطلق به الآية الكريمة :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا
به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

افتحوا باب الاجتهاد

✽ محاولة متواضعة من اجل تطور فكري مرتقب تقدمها الى جميع العاملين في حقل الدعوة ، الذين نذروا انفسهم من اجل اعلاء كلمة الله .

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حمل اتباعه هدى الرسالة ، وانطلقوا في أرض الله ينشرون عقيدتهم ويدعون لها ، ويجابهون بها حضارات الأمم القديمة ، وهي حضارات عريقة ثابتة الأصول سامقة الفروع ، وكان لابد لهم من ان يواجهوا مشاكل جديدة لم يكونوا ليعرفونها في اطار مجتمعهم الصحراوي ، وان كان كتاب ربهم وسنة نبهم قد احاطا بالكثير من القضايا الاجتماعية والتشريعية والحياتية ، التي قد يتعرض لها المجتمع الاسلامي . وكان لابد لهم ، ازاء هذه المشاكل من ان يلجأوا الى كتاب الله ، فان وجدوا فيه الحكم فيما يريدون ، طبقوا نص القرآن وتمسكوا به ، وان لم يجدوه ، اتجهوا الى سنة الرسول القولية والفعلية ، يلتمسون فيها الحل ، فان لم يجدوه اجتهدوا بأرائهم وحكموا افهامهم ، فيما يرونه اشبه بالمعروف من مقاصد الشريعة وقواعدها في اقامة العدل بين الناس وصيانة المجتمع . ومثلهم في ذلك مثل القاضى في العصور الحديثة ، يتمسك بالنص حين يجده ، فان لم يجد النص ، استلهم وجدانه ومثل العدالة وروح النص .

اجتهادات عمر :

وقد تميز صدر الاسلام باجتهادات جريئة لعمر بن الخطاب ، تجلت فيها عبقرية الخليفة العظيم ، وطاقته التشريعية الهائلة ، وثبتت بها مرونة التشريع الاسلامي وقابليته للتطور ، ولأن يكون مرتكزا لكل تصعيدة حضارية في أى زمان ومكان .

ومن اجتهادات ابن الخطاب انه خالف ظاهر النص القرآنى واستلمه روحه . ففى عام الرمادة ، وهو عام قحط ومجاعة ، ابى ان يطبق حد السرقة على السارقين مكتفيا بتعزيزهم . وسبب ذلك ، انه ادرك عظمة الدين وسماحة القرآن ، وايقن ان الدافع الذى دفع هؤلاء الى السرقة ، انما هو الضرورة . والضرورات كما نعلم نحن اليوم ، تبيح المحظورات ، خصوصا حين يكون المرء فى موقف تهدد فيه حياته وحياة من يجب . او ان اعتبر على الأقل ان فى الأمر شبهة عامة ، وانهم انما كانوا يسرقون عن ضرورة ، والحدود تدرأ بالشبهات . وهذه القاعدة الفقهية هى اليوم احدى مرتكزات التشريع الجزائى الحديث ، اذ ان الشك ، كما يقول هذا التشريع ، يفسر دائما لمصلحة المتهم .

وهناك حادثة اخرى ، خالف بها عمر ظاهر النص ، فلقد ادرك هذا الخليفة العبقري ، ان الاحكام تتغير بتغير الأزمان ، فمنع المؤلفة قلوبهم من سهامهم المفروضة لهم بنصوص القرآن ، وحين طلب اليه أن يعلل حكمه ، اطلق تعليله جريئا صريحا ، فهو يفهم ان الاسلام انما اعطى هؤلاء نصيبا فى الغنائم اتقاء لشرهم ، يوم كان الاسلام طرىء العود ضعيف الجانب . اما وقد قوى الاسلام وانبسط ظله ، ولم يعد يضيره ان تنقلب عليه فئة لا هم لها الا اطماعها ، اما وقد تسامق ببيان الدين ، فلا حاجة له لاسترضاء هؤلاء وليصرف المال فى وجوه اخرى تضمن خير المجتمع ومصالح العباد .

واليكم مثلا ثالثا ، بل امثلة ثالثة ضربها ابن الخطاب ، فاذا هى ثورة على الجمود ، جمود العقل على الحرف ، وجمود الذهنية عن العطاء .

لقد طالبه المجاهدون ان يطبق أحكام القرآن فيوزع عليهم سواد العراق وارض مصر كما توزع الغنائم ، وقالوا ذلك حق لنا نص عليه كتاب الله ، وحمته سنة رسوله ، وقال عمر : لا لن أفعل . وابقى الأرضين لأهلها ،

وطرح عليها ضريبة الخراج، لأن ذلك اصلح لحياتها ولأنها تضحى ، والحالة هذه موردا ناميا يغذى بيت المال وينتفع به جميع ابناء الأمة .

وانتهى عهد الصحابة ، وابتدأت عهود اخرى امتدت معها ظلال الدولة الاسلامية ، فانتظمت خليطا من الشعوب ، واطلت كثيرا من الأمم ، وكانت هذه الأمم ، مختلفة النظم ، متباينة العادات والتقاليد واللغات . وشعر المسلمون مرة اخرى ، انهم مدفوعون الى الاجتهاد دفعا ، تقودهم اليه طبيعة الاوضاع الجديدة وضرورات الحياة الجديدة ، فنشطت الحركة الاجتهادية نشاطا عظيما ، وظهر امثال ابى حنيفة ومالك والشافعى واحمد الذين لم يكتفوا باستنباط الاحكام من حوادث واجهها عصرهم ومجتمعهم ، بل انهم استنبطوا الاحكام من قضايا تخيلوها أو اعتبروها ممكنة الحدوث ، فأثروا بذلك الفقه الاسلامى ، وأوجدوا ثروة تشريعية هائلة ، تعتبر بحق ، اعظم ارث تشريعى للمسلمين .

شروط المجتهد :

وتجنبنا لفوضى التشريع ، وضع الاقدمون شروطا لا بد من توفرها فى المجتهد ، منها ان يكون عالما بمواضع الآيات التى يريد الاستدلال بها وابواب الحديث ، وان يعرف النسخ والمنسوخ فى القرآن ، وان يكون ملما بالاجماع ، فيعلم انه ليس فى المسألة التى يبحثها اجماع يناهض رأيه وان يكون فوق هذا كله ، عالما بلغة العرب واسرارها .

لا جمود ولا عجز فى الاسلام :

ومرت العصور سراعا ، واستفقتنا نحن اليوم على مدهشات العلم ومغجزاته ، ومست الحاجة الى مواجهة المدنية الزاهرة ، باحكام جديدة

تسجهم معها وتسايرها وتطلعنا نحن المسلمين الى مؤسساتنا الفقهية ، نلتمس عندها الحلول ، ونطلب اليها ان تدلى برأيها من زاوية الدين .

فماذا كانت النتيجة :

لقد وجدنا ويا للأسف ، ان عقليتنا التشريعية تسمرت حيث تركها الاقدمون ، وجمدت عند النصوص التي خلفوها . ومعنى ذلك ، اننا اعترفنا بتقصير العقل الحديث عن اللحاق بالعقل الغابر ، بل لم لا نقول : ان معنى ذلك كان الغاء كلياً لعقولنا وملكاتنا الفكرية ، حتى ظن الكثيرون خطأ ، ان هذا الجمود التشريعي انما هو تابع من طبيعة ديننا ، وان هذا الدين فشل في مسايرة التطور والانسجام مع المدينيات الحديثة .

ما أبرأ الدين الاسلامي ، ايها القارئ العزيز ، من تهمة التحجر والجمود ، هذه العلة التي اسبب بها رجاله ، فاتهم هو بها ظلماً وعدواناً . وعن جهل بما فيه طاقات عجيبة ، وطواعية قادرة ، ومرونة هائلة ، وزحم حضارى عظيم .

حل واحد :

هؤلاء السادة ، الذين زعموا لأنفسهم سدانة الدين ، هم الذين خلوا على فقهنا ظلاً من الصنمية والقداسة ، ونسوا ان العقل المستنبط يجب الا يقف عند نصوص الفقهاء ، ما دامت ينايع التشريع فى الدين الاسلامي معروفة ، وما دامت هذه الينايع من التدفق وسخاء العطاء ، بحيث توزع الخصب والنماء ، وتعطى الحضارات مقومات البقاء .

هناك حل واحد ينفي عن الاسلام تهمة الجمود ، هذا الحل يقضى بان يفتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، دون التفات لأولئك الذين اقاموا انفسهم حراساً على ارثنا الفقهي ، واعتبروه من مقدساتنا التي لا تمس . ثم ان على

الذين يقوون بسد باب الاجتهاد ؛ فان كان التقليد ؛ فاننا لم نسمع ان احدا من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وتاييهم قال به ، وان كان الاجتهاد ، فلماذا لا يحق لمن بعدهم ان يجتهد وهم يجتهدون .

ان بين رجالات المسلمين اليوم ، من اوتوا من الانطلاق الفكرى ، وصدق الايمان ونير العقلية ، ما يمكنهم من استنباط الاحكام الجديدة المنسجمة مع روح العصر ، وما يساعدهم على ان يظهروا الاسلام بمظهره الصحيح ، من التقدمية وسعة الصدر .

ولعل من مفاخر الشيعة الامامية ان باب الاجتهاد ما يزال عندهم مفتوحا ، بخلاف المشهور عند جمهور المسلمين .

أين المجتمع التشريعى الاسلامى :

ولكم تمنى الآن على رجالاتنا الفيورين على دينهم ان يتنادوا الى تأليف مجمع يتولى اعادة النظر بارثنا الفقهى كله ، وان يستنبطوا ويجتهدوا ويخرجوا الفقه الاسلامى من قوقعته .

ولكم تمنى أيضا على جامعة الدول العربية أن يتضافر اعضاؤها فى سبيل هذه الغاية ، وان يعملوا جميعا من اجلها ، فلقد اجتهد الأئمة الأربعة وغير الأئمة الأربعة ، فى زمن كانت الابل فيه هى معجزة الصحراء ، أفلا يحق لنا نحن ، ان نجتهد فى عصر الذرة والرادار والراديو والتلفزيون والاجرام الاصطناعية .

لقد اجتهد ائمة الاسلام فى العصور الغابرة ، واعتمدوا فى اجتهادهم على القرآن وهدى السنة وروح الدين ، ولم يجدوا حرجا فى ألا تتوافق اجتهاداتهم احيانا ، فلعل كل منهم حرمة ، ولكل فقيه منهم وجهة نظره ، فكيف يحرم علينا نحن ان نجتهد وان نعمل عقولنا ، وكتاب الله ما زال بين

ايدينا وفي صدورنا وسنة رسولنا الأعظم ما فتئت هي النبراس ، وهي المشكاة التي تبدد الظلمات ، وتهدينا سواء السبيل .

ان التشريعات الوضعية الحديثة ، آمنت بالاجتهاد وقضت على محاذيره وفوضاه ، بتأليف محاكم عليا لتوحيد الاجتهادات ، حين تتضارب هذه الاجتهادات وتتنافر ، ولم نلجأ نحن بعد فتح باب الاجتهاد ، الى تأليف محكمة عليا ، توحد وجهات النظر وتقارب بينها ، وتخدم الاسلام كما يجب ان يخدم ، وتنقذه كتشريع اجتماعي خالد ، من تهمة القصور والجمود ، وعدم الانسجام مع الوثبات التصاعدية للمدنية الحديثة .

ارجو ان يعيد الزمن دورته ، ويسترد الاجتهاد مكانته ، ويمنحنا الله قوته .

فهرس الكتاب

٣	مقدمة
٧	الاسلام عبر العصور
٣٣	الحریات العامة
٤٨	المجتمع المثالی
٧٢	الدينقراطية المفقودة
٨٩	الاشتراكية الاسلامیة
١٠١	بین الاشتراكية والقومیة
١٢١	بین العروبة والاسلام
١٤٤	المراة والحرية
١٥٨	لبنان اخاء بین المسيحية والاسلام
١٧٤	فتنحوا باب الاجتهاد



مؤسسة

دار التحرير للطباعة والنشر

(مطابع شركة الاعلانات الشرقية)